



الإسلام
سأله
رأى حفاظ

بِحَقِّ حَوْلِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ
لِسَيِّدِ شُهَدَاءِ الْأُمَّةِ السَّيِّدِ حَسَنِ نَصْرَ اللَّهِ

بسم الله الرحمن الرحيم



	اسم الكتاب: حافظ رسالة الإسلام
	بحث حول الإمام الحسن المجتبي عليه السلام لسيد شهداء الأئمة سماحة السيد حسن نصر الله قدس سره
	إنتاج ونشر: دار المودعة للترجمة والتحقيق والنشر
	تصميم: رضا قصير
	مخطوطة: أيمن جابر
	إخراج: ماجد مصطفى
	طباعة: DBOUK 00961 3 336 218
	الطبعة الثانية: 2025 م - 1446 هـ
	ISBN: 978-614-464-381-5
Lebanon, Beirut, Sfeir, Moukarzel Street Mob: 00961 70 724300 Telefax: 00961 1 270664 infor@diwan-kitab.com diwan.kitab.dm@gmail.com	

حَافِظُ مِرْيَالَةِ السَّالِمِ

سلسلة محاضرات لسيد شهداء الأمة سماحة السيد حسن نصر الله قُدِّسَ سِرُّهُ

حول الإمام الحسن بن علي المجتبي عَلَيْهِ السَّلَامُ

ألقاها في ليالي عاشوراء - محرم 1442 هـ



الفهرس

9	المقدمة
11	الفصل الأول: العودة إلى التاريخ
13	لماذا العودة إلى التاريخ؟
14	بعض الفوائد من دراسة التاريخ
14	• الفائدة الأولى: فهم الحاضر
21	• الفائدة الثانية: العبرة والتجربة والدروس
31	• الفائدة الثالثة: التثبيت
36	كربلاء: الحادثة الاستثنائية
39	الفصل الثاني: التاريخ وتحمل المسؤولية
41	ظروف انتقال السلطة إلى يزيد
42	موقف الإمام الحسين (عليه السلام)
45	تحمل المسؤولية تجاه الغير
46	• هل يوجد شيء اسمه مسؤولية؟
50	• تحمل المسؤولية أمر فطري
55	• اتساع المسؤولية خارج حدود البلدان
62	• شرط القدرة لتحمل المسؤولية
67	• تشخيص القدرة
69	الإمام الحسين (عليه السلام) وتحمل المسؤولية
72	تحمل المسؤولية منهج نبوي

الفصل الثالث: الإمام الحسن عليه السلام في زمن جدّه رسول

77 الله ﷻ

80 هدفان مركزيّان للحركة النبويّة

82 الحسن والحسين عليهما السلام في المشروع النبوي

84 ولادة الإمام الحسن عليه السلام

86 حبّ رسول الله ﷺ للحسين عليه السلام

94 أحوادث للحسين عليه السلام مع رسول الله ﷺ

94 الحادثة الأولى: حادثة المباهلة

99 الحادثة الثانية: سورة الدهر

103 الحادثة الثالثة: حادثة الكساء المعروفة

106 تعامل رسول الله ﷺ مع الحسين عليه السلام على أنّهما كبيرين

113 الفصل الرابع: جذور المعركة وخلفيّتها

115 مرحلة إمامة الإمام الحسن عليه السلام

116 المهمة الأولى: إنزال القصاص بقاتل أمير المؤمنين عليه السلام

120 المهمة الثانية: تجهيز أمير المؤمنين عليه السلام ودفنه

المهمة الثالثة: متابعة قيادة المعركة بعد أمير

121 المؤمنين عليهم السلام

124 مرحلة ربط النزاع

125 المعركة الدائمة بين البيت الهاشمي والبيت السفيفاني

126 أولاً: مع رسول الله ﷺ

132 ثانياً: مع أمير المؤمنين عليه السلام

142 مسار المشروع الأموي

الفصل الخامس: ظروف المواجهتين العلوية والحسنية 149

الحسن والحسين عليهما السلام منهجٌ واحد 151

ظروف مواجهة أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية 153

تفاعل الناس في الأشهر الأخيرة من حياة أمير المؤمنين عليه السلام 162

شهادة أمير المؤمنين عليه السلام وقيادة الإمام الحسن عليه السلام 163

مؤامرات معاوية وتخاذل الجيش 166

• الحادثة الأولى: خيانة عبيد الله بن العباس 166

• الحادثة الثانية: طعن الإمام الحسن عليه السلام 168

ظروف مواجهة الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية 170

حقيقة موقف الإمام الحسن عليه السلام 173

تحويل التهديد إلى فرصة 175

• الشروط المرتبطة بمنهج الحكم 176

• الشروط الأمنية 177

• الشروط الشكلية 178

قطف ثمار التسوية سريعاً 179

دور الإمام الحسن عليه السلام بعد التسوية وجهاده وشجاعته 181

مظلومية الإمام الحسن عليه السلام 184

مسؤوليتنا تجاه الإمام الحسن عليه السلام 187

المقدمة

جاء في الخطبة 192 من كتاب نهج البلاغة قول أمير المؤمنين عليه السلام :
«... وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأَمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثَلَاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ
وَدَمِيمِ الْأَعْمَالِ، فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ
تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ، فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَقَاوُتِ حَالِيهِمْ فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ
لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ وَزَاوَتْ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ وَمَدَّتِ الْعَافِيَةُ
بِهِ عَلَيْهِمْ وَأَنْقَادَتِ النُّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلُهُمْ
مِنَ الْجِتَابِ لِلْفِرْقَةِ وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ وَالتَّحَاصُّ عَلَيْهَا وَالتَّوَاصِي بِهَا،
وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ وَأَوْهَنَ مُنْتَهَهُمْ مِنْ تَصَاغُنِ الْقُلُوبِ
وَتَشَاخُنِ الصُّدُورِ وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ وَتَخَادُلِ الْأَيْدِي، وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ
الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمَحِيصِ
وَالْبَلَاءِ...».

فهذه وصية من أمير المؤمنين عليه السلام للعودة إلى التاريخ ودراسته
وتدبره والغوص في تفاصيله للخروج بنتائج عملية تطبق على
الواقع المعاصر بالاستفادة من تجارب الماضين واستقراء سنن الله
في خلقه.

وهذه المحاضرات التي بين أيدينا هي محاضرات ألقاها سيد
شهداء الأمة سماحة الأمين العام السيد حسن نصر الله قدس سره في
ليالي عاشوراء من العام 1442هـ / 2020م، وهي تطبيقٌ فعلي من

سماحته لهذه الوصية، وهي أيضاً دعوة للتطبيق العلمي والعملية لها، فسماحته بدأ ببيان أهمية العودة إلى التاريخ وبيان كيفية الاستفادة منه في الواقع الحالي بل ضرورة ذلك، وضرب الأمثلة المعاصرة لهذه العودة.

ومن ثم انتقل من المدخلية نفسها إلى سيرة الإمام الحسن (عليه السلام)، مبيّناً مقامه ودوره ووظيفته من أول لحظة في حياته وحتى شهادته، فقرأ هذه السيرة، ووقف على المفصل المهمة فيها، وعرض بعض الشبهات التي رافقت سيرته (عليه السلام) خلال العصور الماضية، مبيّناً أسبابها ودوافعها والرد عليها وإيضاح الحقيقة.

الفصل الأول

العودة إلى التاريخ

الليلة الأولى من شهر محرم 1442هـ
(آب 2020 م)



تُشكّل ذكرى عاشوراء فرصة للمعرفة والعلم والرجوع إلى الله، وفرصة للمواساة والمغفرة والتوبة، وهي أيضًا فرصة غالية للتعبير عن المودة لذوي القربى الذين جُعِلت مودّتهم أجرًا أعظم رسالة، وهي مناسبة للتزوّد الروحي والنفسي والمعنوي للدنيا والآخرة. ونطلّ فيها على عنوانين، الأول: الهجرة النبويّة، هجرة النبي ﷺ من مكّة إلى المدينة. والثاني: الهجرة الحسينيّة، إذ في مثل هذه الأيام يصل موكب الحسين ﷺ إلى كربلاء، وتُختتم الهجرة الحسينيّة التي بدأت من المدينة التي هاجر إليها جدّه ﷺ. وفي حين أدّت الهجرة الأولى إلى إقامة الإسلام وتأسيس دولته والانطلاق الحقيقي للأمة الإسلاميّة، أدّت الهجرة الثانية إلى بقاء الإسلام وحفظه واستمراره، وحفظ الأمة الإسلاميّة.

لماذا العودة إلى التاريخ؟

من الجيّد أن نبدأ بحثنا بطرح سؤال حول جدوى هذا النوع من الاشتغال، أي: لماذا نصرّ دائمًا على العودة إلى التاريخ؟ ولماذا نستعيد هذه الأحداث التاريخية - على أهميّتها وعظمتها - بشكل دائم وفي كلّ عام؟

سأعتمد في هذا الفصل إلى الوقوف على هذه النقطة بشيءٍ من المعالجة؛ أعني: مسألة التاريخ وسؤال العودة إليه وفهمه وقراءته، فهل هناك حاجة حقيقية لنا نحن الذين نعيش في هذا العصر ولأجيالنا الحاضرة وتحدياتنا القائمة واستحقاقاتنا العاجلة للعودة إلى التاريخ؟ أو أنّ الصحيح أن نضع التاريخ وراءنا ونغلق عليه الأبواب بالكامل ونعيش يومنا بمعزل عن الماضي والتاريخ؟ أو أنّ إطلالتنا على التاريخ ودخولنا إليه وفهمنا إيّاه وتزودنا منه هو حاجة فكرية ونفسية وروحية ومعنوية وعملية لنا في حاضرننا ومستقبلنا؟ هذا عنوان البحث الذي سنخوض فيه إن شاء الله بطريقة مختصرة.

بعض الفوائد من دراسة التاريخ

• الفائدة الأولى: فهم الحاضر

أول نتيجة نحققها عندما نصرّ على العودة إلى التاريخ ومناقشته هي الفهم.

فنحن اليوم تواجهنا في واقعنا المعاصر صعوبات وتحديات ومهام ومسؤوليات وهموم ومخاطر، وهي تطال كلّ فرد في أيّ بيت في لبنان والمنطقة والعالم، حيث إنّ لكلّ فردٍ همومه وتحدياته ومسؤولياته، ولكلّ ظروفٍ يعيشها على مستوى شخصه وعائلته وبيئته ووطنه، كما أنّ لنا ظروفًا تواجهنا كبيئة على مستوى المنطقة والإقليم وانعكاسات أحداث العالم علينا.

لذا، حينما نريد أن نتعاطى مع حاضرنّا بكلّ ما يتضمّنهُ بطريقة صحيحة وسليمة، فإنّ علينا أن نفهم هذا الحاضر وأن نفهم ما يجري حولنا، وعلينا أن نعرف أعداءنا وأصدقاءنا، من هم؟ وما هي أهدافهم؟ وما هو تاريخهم؟ وما هي خلفيّاتهم؟ وما هي تجاربهم؟ وما هي نقاط قوّتهم؟ وما هي نقاط ضعفهم؟ وكما أنّ التعامل الصحيح مع استحقاقات الحاضر والمستقبل يتوقّف على فهم الحاضر واستشراف المستقبل، فإنّ فهم الحاضر بدوره يتوقّف على فهم الماضي والتاريخ، لأنّه امتدادٌ لهما، ومن نتائجهما.

إنّ ما نعيشه اليوم من أحداث ليس معزولاً عمّا حصل قبل عشر سنوات أو عشرين سنة أو خمسين سنة أو حتّى سبعين سنة، ومن شواهدهُ أنّ أهمّ تهديد يواجه أمن منطقتنا اليوم بل والسلام والاستقرار والعيش الرغيد والحياة الهانئة فيها هو وجود الكيان الغاصب إسرائيل، ووجود هذا الكيان يرتبط بأحداث وقعت منذ أكثر من سبعين سنة، ومن شواهدهُ أنّ ما نعيشه في منطقتنا اليوم من أحداث إنّما يعود إلى نتائج الحربين العالميتين الأولى والثانية على قِدَمهما. فالماضي متّصل بالحاضر، وأحداث الماضي هي التي أدّت إلى ما نحن عليه من الواقع القائم في عصرنا الراهن، الذي نُعتبر شركاء في صنعه، فلكي نفهمه ونحدّد كَيْفِيّة التعاطي معه، لا بدّ لنا من الرجوع إلى التاريخ القريب والمتوسط، بل حتّى إلى التاريخ البعيد.

إذًا، فالفهم هو النتيجة الأولى، ونحن في حاجة ماسة إلى فهم ما جرى في التاريخ الماضي.

نعم، لا يخفى أنّ السعي إلى قراءة تاريخ البشرية كلّها بمختلف شعوبها وأممها أمرٌ يحتاج إلى تخصص لا يمتلكه كلّ شخص، ولكنّ المطلوب بالحدّ الأدنى الإمام بتاريخ بلادنا ومنطقتنا وشعوبنا وأمّتنا، فهذا ممّا يجب الاطلاع والتعرّف عليه بشكلٍ واسع. وأضرب هنا أمثلةً على أهمية هذا الفهم:

المثال الأول: نحن نعتبر أنّ البلاء الحقيقي في منطقتنا اليوم - كما تقدّم - هو وجود إسرائيل، التي هي الغدّة السرطانيّة وجراثومة الفساد والشرّ المطلق، وثمة في منطقتنا إزاء مسألة الوجود الإسرائيلي اتجاهان: اتجاه يتبنّى خيار مواجهة هذا العدو ومقاومته، وآخر يتبنّى خيار الاستسلام والتسوية والتعامل الطبيعي معه، وأياً يكن الخيار الذي يختاره المرء في التعاطي مع هذه المسألة ومع هذا الحدث التاريخي، فإنّ عليه أولاً أن يكون ذا معرفة بتاريخ فلسطين وشعبها وأرضها من مئات بل آلاف السنين، ويجب عليه أن يعرف أيضاً حقيقة هؤلاء الغزاة الذين جاؤوا إلى فلسطين والذين يقولون إنّهم هم بنو إسرائيل، فمن يكون هؤلاء؟ وهل هم حقيقةً بنو إسرائيل، أي بنو النبي يعقوب عليه السلام؟ هؤلاء أين كانوا ومن أين جاؤوا وما هي أهدافهم الحقيقية وما هي نقاط قوّتهم وما هي نقاط ضعفهم؟ وهذا كلّهُ إنّما نجده في قراءتنا للتاريخ.

بعض العرب في الخليج يتكلمون وينظرون لمسألة أن الحق الديني في أرض فلسطين المحتلة هو لهؤلاء الغزاة، وهذا الأمر نقاشه واضح على المستوى الديني، إذ حتى هؤلاء الغزاة أنفسهم لم يذهبوا إلى ذلك، وعند عقد المؤتمر الصهيوني الأول بمشاركة الدول الغربية ومن بينها دولة الانتداب في المنطقة آنذاك وهي بريطانيا، كانوا خلال النقاشات يطرحون عدّة خيارات حول الوطن القومي المفترض لهم، من بينها الأرجنتين، وأوغندا، ومن بين الخيارات كانت فلسطين. وما كان هناك كلام يومها لا عن موطن آباء ولا أجداد ولا عن وعد إلهي وما شابه، بل كان الموضوع سياسيًا بالكامل، ثم لاحقًا وبعد أن اختار البريطانيون أرض فلسطين من أجل تثبيت هذا الكيان المصطنع في منطقتنا خدمةً لأهدافهم الاستعماريّة، استحضروا الدين والعهد القديم والتوراة الموجودة بادّعائهم والادّعاءات الدينية ليغطّوا المشروع الاحتلالي التقسيمي الكارثي الذي أرادوه لشعوبنا ولمنطقتنا.

هذه الحقائق التاريخية يجب أن تكون معروفةً لدينا، وهي تساعدنا في مواجهة هذا العدو.

المثال الثاني: تشكّل أمريكا اليوم أكبر تحدٍّ لشعوب العالم، وأكبر تهديد للأمن والسلم الدوليين، وهي التي تعاقب دول العالم بحجّة تهديدها للأمن والسلام العالميين، وتصنّف حركات المقاومة الشريفة بأنّها إرهابيّة، أقول: عندما نعرف تاريخ هذا الكيان المسمّى بالولايات المتّحدة الأمريكيّة، والذي رأينا في هذه السنة

وفي الأحداث الأخيرة انكشاف بعض الأقنعة التي كانت تحجب بينه وبين شعوب العالم، فإننا نحدّد كيفية التعاطي الصحيح معه، ونشخص بدقة ماذا ينبغي أن تكون توقّعاتنا منه ورهاناتنا عليه. لو عدنا إلى تاريخ الشعب الأمريكي قبل بضع مئات من السنين، فإننا سنجد تاريخ غزاة وعصابات إرهابية ومستوطنات، فالولايات المتحدة هي في الأصل دولة مستوطنات ومجازر رهيبة ارتكبت بحق السكان الأصليين، وثمة في التاريخ كلام على عشرات من الملايين من رجال ونساء وأطفال قُتلوا في إبادات جماعيّة، بل عن حوالي مئة مليون قُتلوا في ذلك الحين حتّى تم استعمار تلك الأرض.

فهذه طبيعة أمريكا وهذه ماهيّتها، وهذه أيضًا طبيعة إسرائيل وماهيّتها، ولذا فوجود علاقة بينهما أمر طبيعي، لأنّهما من طبيعة واحدة وماهيّة واحدة، ويحتكمان لعقل عنصري وإرهابي واحد. هذه المعرفة توصلنا إلى نتيجة مفادها أنّه إذا وُجد - من سبعين سنة إلى اليوم - من يراهن على العلاقة مع أمريكا والتودّد إليها، أو ينظر لفكرة إيجاد لوبي عربي في أمريكا وإقامة العلاقات معها لتحصيل الحقوق الفلسطينيّة والحقوق العربيّة، فإنّه يكون مشتبهاً ومخطئاً، وقد ثبت ذلك بالفعل، لأنّه لا يمكن التفكيك بين إسرائيل وأمريكا حتّى من ناحية طبيعة الوجود والكيان والماهيّة والهويّة.

ويتأكد ذلك عندما نعرف تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية القائم على الاحتلال والغزو والمجازر والعبودية، فإنّ من أبشع صور العبوديّة في التاريخ ما حصل في الولايات المتحدة الأمريكية عندما سيق ملايين البشر من ذوي البشرة السوداء، وتمّ استعبادهم وتعذيبهم، وذلك مُثَبَّتٌ بالوثائق والمستندات، ويؤكّده صنّاع الأفلام الوثائقية، بل وتعرضه كذلك بعض الأفلام الهوليودية مع محاولة للتخفيف من قبح المشهد.

فنحن إذًا أمام دولة متوحّشة وعنصريّة في عمقها وحقيقتها، ونظامٍ قائمٍ على أسس التمييز العنصري الظالم، فما الذي نتوقّعه من هذه الدولة وهذا النظام؟ الرحمة؟ أو العطف؟ أو الاعتراف بالحق؟ أو هل نتوقّع منها احترام الإنسان؟

ثمّة تعبير لطيف لسماحة السيد القائد الإمام الخامنّي عليه السلام يعتبر فيه أنّ حقيقة هؤلاء لا تختلف البتّة عن كلّ مظاهر العنف والتوحّش التي نشهدها في مجتمعات العالم الثالث، سوى أنّهم يعتنون بمظهرهم ويلبسون ربطات العنق ويستخدمون العطور⁽¹⁾. وخلاصة القول: إنّ من نتائج معرفتنا التاريخية بحقيقة النظام الأمريكي وفهمنا له هو أن لا نقبل أن تنظر علينا أمريكا في ما يخصّ قضايا حقوق الإنسان والمساواة والعدالة والرحمة والقيم

(1) «نحن نعرف طبيعة الاستكبار ونزعاته. نعرف أنهم يغطّون قبضاتهم ومخالبهم الدامية بظاهر مخملي ناعم. هذا ما نعلمه ونراه. لم ننخدع أبدًا بما يستعملونه من عطور وربطات عنق وملابس أنيقة». من كلام للإمام الخامنّي عليه السلام خلال لقاء مع مسؤولي الدولة بتاريخ 2008/9/8.

الإنسانية، فهي بعيدة عن كل هذه العناوين أشد البعد، ولا تمت لها بصلة، إلا أنها تختبئ خلف الإعلام الكاذب والبهرجة والتزوير والتضليل لشعوب العالم لتظهر كنموذج للعدالة والرحمة والمساواة والحرية والإنسانية. وبالتالي على كل من ينظر إلى هذا القناع الزائف أن يعرف أي وجه يخفي هذا القناع خلفه، وذلك إما يتم من خلال قراءة التاريخ.

المثال الثالث: نلاحظ في صراعنا اليوم مع العدو الإسرائيلي، أو في مواجهتنا للهيمنة الأمريكية في المنطقة، أن البعض يتعجب من موقف بعض الدول والكيانات والأنظمة العربية من القضية الفلسطينية، ومن خضوعهم الذليل للولايات المتحدة الأمريكية، وتخليهم حتى عن أبسط القيم الإنسانية والإسلامية والدينية، بل وأبسط التقاليد والأعراف العربية. إلا أن قراءة تاريخ هذه الأنظمة كفيلاً بدفع التعجب، لأن من قرأ تاريخها يعلم أن بعض هذه الكيانات هي في الأصل كيانات وظيفية، صنعتها بريطانيا منذ اليوم الأول وأرست عروشها لتكون خادمة للمشروع الغربي الذي ورثته الولايات المتحدة الأمريكية.

من هنا، فإن جهلنا بالتاريخ القريب والمتوسط، فضلاً عن البعيد، يجعل قراءتنا خاطئة وتوقعاتنا سراباً وأوهاماً، بينما تؤدي القراءة الصحيحة للتاريخ إلى قراءة الحاضر بطريقة صحيحة، وإلى أن تصبح توقعاتنا واقعية وآمالنا حقيقية ورهاناتنا صحيحة، فنختار الطريق الصحيح. وهذه كانت أمثلة سريعة لتأكيد هذا القول.

• الفائدة الثانية: العبرة والتجربة والدروس

لو نظرنا إلى المسألة اللبنانية، فإننا نجد في لبنان من يخرج عبر وسائل الإعلام ويتغنّى بشعارات هي أقرب أحياناً إلى الأمانى والآمال العريضة، علماً أن القضايا والمشاكل في لبنان لا تُحلُّ بالشعار والحماسة، أو بالانفعالات وبعض المواقف أو القراءات السطحيّة، بل نحن نحتاج إلى قراءة حقيقيّة وعميقة ودقيقة للتعقيدات الموجودة في لبنان وللأزمة اللبنانية، وهذا أيضاً يتم من خلال قراءة التاريخ القريب والمتوسّط.

فالعبرة والتجربة واكتساب الدروس تكون بالتعلّم من التاريخ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁽¹⁾.

القرآن والتاريخ

إنّ القرآن الكريم كتاب هداية، وهو ليس كتاب قصص ولا كتاب تاريخٍ مشابهٍ لكتب التاريخ المعروفة، كتاريخ الطبري أو تاريخ ابن الأثير أو تاريخ اليعقوبي، إلّا أنّه على الرغم من ذلك ذكر أحداثاً تاريخيّة كثيرةً، وهي أحداثٌ مهمّةٌ جدّاً من الماضي، وقصصاً لأقوام وأنبياء وأولياء ومؤمنين، وذلك لأنّ الله يريد منّا أن نستخلص من هذه الأحداث والقصص العبر، وأن نأخذ منها الدروس للاستفادة من تجارب من مضى قبلنا. ولهذا نجد في القرآن الكريم ذكراً

(1) سورة يوسف، الآية 111.

لقصصٍ ماضيةٍ عديدة، عن بداية خلق السموات والأرض، وعن خلق آدم وزوجه، وعن قصّة آدم وإبليس وسجود الملائكة، وعن آدم وحواء وإبليس في الجنة، وعن هبوطهم إلى الأرض، وصولاً إلى قصّة أولاد آدم هابيل وقابيل، ثم قصّة نوح والطوفان، ثم الأنبياء من بعد نوح، والكلام عن أقوام هود وصالح، وعن إبراهيم وأبنائه، وعن يعقوب وبني إسرائيل، وعن الأنبياء الذين سبقوا والذين لحقوا، وغير ذلك من الأحداث والقصص التي تزخر بالعبر والدروس العقائديّة والإيمانيّة والتربويّة والاجتماعيّة والروحيّة والنفسيّة والسياسيّة والجهاديّة، التي ما زال المفسّرون ينهلون منها حتّى عصرنا هذا، وذلك لما يتّصف به القرآن من التجدّد والحياة والخلود، بحيث يتسنى لكلّ جيل أن يكتشف ما خفي من العبر والدروس عن مفسّري الأجيال السابقة.

الاستفادة من التجارب

إنّ التاريخ مليء بالتجارب البشريّة ونحن معنيّون بأن نستفيد من هذه التجارب، وهذا غير منحصر بتجاربنا الشخصية، أو بتجارب شعوبنا وأمّتنا، بل يشمل تجارب البشر كلّهم، سواء كنّا نلتقي معهم في دين واحد أو حضارة واحدة أو أرض واحدة أو كانوا بعيدين عنّا؛ وهذا ما تحثّ عليه وتدفع إليه الآيات القرآنيّة والأحاديث الشريفة.

فنحن إذًا معنيّون بأن نستفيد من كلّ التجارب، وعندما نتكلّم عن التجارب التاريخيّة فلا نقصر فقط على الأحداث السياسيّة،

كالحديث عن حكايات الملوك الماضين والأنظمة التي حكمت في التاريخ والإمبراطوريات والحروب والجهات، بل نتكلّم عن كلّ ما قام به البشر طوال الماضي والتاريخ، على المستوى العلمي والمعرفي المتنوّع، وعلى المستوى الديني والعقائدي، وعلى المستوى السياسي والأمني العسكري والاجتماعي، وعلى مستوى تركيب المجتمعات والأسرة، وعلى المستوى المالي والاقتصادي والحياتي، وعلى المستوى الفني، وعلى كلّ مستوى.

فكل التجارب البشريّة ينبغي الاستفادة منها، ولا يصحّ من أحد أن يباشر أمرًا من الأمور الشخصيّة أو العلميّة أو السلوكيّة أو الاجتماعيّة أو التنظيميّة أو غيرها مبتدئًا من الصفر، أي دون المراكمة على تجارب من سبقه في المجال المقصود، سواء كان سعيه لأمرٍ فردي أو أمرٍ يخصّ الجماعة، ومن يتجاهل هذه التجارب ولا يراكم عليها هو شخصٌ متخلّف وسيبقى متأخّرًا عن ركب البشريّة الهادر الذي يسير بسرعة هائلة وخصوصًا في القرنين الأخيرين.

ولهذا نجد في البحث العلمي، سواءً في مجال العلوم الطبيعيّة كالفيزياء والكيمياء والفلك، أو العلوم الإنسانيّة كعلم الاجتماع، أو العلوم الإسلاميّة كالفلسفة والفقه، أننا عند البحث حول أي مسألة نبحت أولًا عن تاريخ طرحها، وعن الحثثيات التي رافقت زمان طرحها، وعن الأقوال التي قيلت فيها، وعن القائلين واستدلالاتهم. ثمّ نتقدّم بعدها مع المسار التاريخي، لنرى ما طرح حولها في أوّل

خمسین أو مئة سنة مثلاً، ثم نواصل مواكبة تطوّر المسألة، ونقف على ما قدّم فيها من إضافاتٍ وتعديلاتٍ حتّى وصولها إلى زماننا. وهذا منهج علمي مُعتمد في مجموعة من العلوم، كما نرى في مباحث الفقه حيث يرجع الفقيه في كلّ فتوى إلى أساسها وتاريخها ليرى حيثيّة المسألة كيف طُرحت؟ وما كانت ظروف طرحها؟ ويراجع آراء الفقهاء فيها حتّى زماننا. وكذلك الأمر في العلوم الطبيعيّة، إذ تتجلى هذه الضرورة، لأنّ التطوّر العلمي مبني كلّهُ على تجارب الماضين وعلومهم وخبراتهم.

السنن التاريخية

عندما نقرأ التاريخ وندرسه في سياق أخذ العبرة وقراءة التجربة منه، فإنّنا نكتشف الكثير من القوانين الحاكمة في التاريخ والمجتمع البشري. فاليوم مثلاً، في مجال الطب، يعمل الأطباء على أساس وجود قوانين وسنن طبيعيّة، يدرسونها ويطبّقونها، وعلى أساس ذلك يشخّصون الأمراض ويقدّمون توصيفات معيّنة ويعلمون سبب هذا المرض وذاك، وكذلك عوارضه وآثاره.

وكذلك الأمر في الفيزياء والكيمياء والفلك، فالبشر اليوم يرسلون مراكب إلى الفضاء تقطع مسافاتٍ طويلةٍ جدّاً، لتهبّط بطريقة بالغة الدقّة على القمر أو على كوكب المريخ أو لتبقى سابحةً في الفضاء للاستطلاع، وهذا كلّهُ ناتج عن كون عملهم مستنداً إلى قوانين وحسابات علميّة دقيقة، لأنّ هذا الكون على امتداده منظّم تنظيمًا دقيقًا، فعندما نكتشف النظام الدقيق ونكتشف

قوانينه يصبح بمتناول أيدينا التعامل معه وفق هذه القوانين لمصلحة البشرية، والله سبحانه وتعالى، في الأصل، سخر لنا هذا النظام ودلّنا على وجود سنن وقوانين حاكمة عليه، ودعانا إلى استكشافها والعمل على أساسها.

والكلام عينه يسري إلى تفاصيل الحياة البشرية، حيث يمكن الحديث عن مجموعة قوانين وسنن حاكمة على تاريخ الشعوب وعلى المجتمعات البشرية، بحيث لا يكون مسارهما عشوائياً، وهذه السنن والقوانين قابلة للاستكشاف، وينبغي علينا أن نتعرّف عليها ونبحث عنها وذلك حتى نعمل على أساسها⁽¹⁾، والتعرّف عليها لا يمكن أن يتمّ دون دراسة التاريخ والاطّلاع عليه. وسأطرح بعض الأمثلة على مسألة أنّ دراسة التاريخ تمكّننا من معرفة السنن والقوانين:

عندما نقرأ التاريخ ونلاحظه بذهنيّة تحليليّة مستندة إلى مناهج دراسة التاريخ والاجتماع، يكون بإمكاننا أن نكتشف مثلاً كيف لمجموعة بشريّة معيّنة، في أرض محدّدة، أن تتحقّق لديها حركة نهوض وارتقاء على مستوى معيّن، وكيف أمكن مثلاً لمجموعة أو أمة أو شعب قويّ بناء دولة أو مملكة امتدّت لتصبح إمبراطوريّة متماديّة الاتّساع.

(1) ولذلك نقول إنّ الدين والعلم متّفقان، بل أصل فرضيّة وجود مشكلة بينهما والإشكال أنّه كيف يمكن العمل للجمع بينهما هي فرضيّة غير صحيحة، إذ الدين قائم في الأساس على العلم والمعرفة، ومستندٌ بشكلٍ أساسي إلى الحقائق والوقائع الوجوديّة والتكوينيّة الخارجيّة، كما خلقها الله سبحانه وتعالى.

إنَّ أحداث التاريخ ووقائعه محكومة كلّها لسنن وقوانين محدّدة، وما قد نشهده عند هذه المجموعات البشريّة إنّما نتج عن كونهم قد عملوا وفق سننٍ معيّنة فوصلوا إلى نتائجها الطبيعيّة، كأنّ تصير أمّةٌ ما أمّةً عظيمة، أو أنّ تتحوّل دولة ما لإمبراطوريّةٍ عظيمة، لأنّ لذلك كلّ سننه وقوانينه التي يجب أن نبحث عنها ونفهمها من التاريخ.

وعلى امتداد التاريخ نجد أيضًا ذكرًا لشعوب أو أمم أو دول جابهت إمبراطوريّات ضخمة، وواجهت تحديات خطيرة، لكنّها صمدت وثبتت ولم تسقط، فما كانت أسباب وعوامل صمودها؟ إنّنا إذا عرفنا هذه الأسباب والعوامل، أمكننا أن نستفيد منها في واقعنا المعاصر.

ولذلك نقول إنّّه لا بدّ من قراءة التاريخ لنرى الأحداث والتجارب البشريّة في مجال قيام الشعوب وقيام الدول والإمبراطوريّات أو سقوطها وتهاويها، لنعرف ما هي العوامل المؤثّرة في ذلك، فنستنتج ونستكشف السنن والقوانين، كما في تجارب العلوم الطبيعيّة.

على سبيل المثال: يقول الله سبحانه تعالى في قرآنه الكريم: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا فِتْنَتَهُمْ وَلَا تَذْهَبْ رِيحُكُمْ﴾⁽¹⁾، فهذه القضية ينبغي أن نأخذها كسنّة إلهيّة. فنحن عندما نقرأ تاريخ الإمبراطوريّات نجد نماذج لدول عظمى واسعة الامتداد نشب بين زعمائها وقادتها نزاع، نتيجة أطماع شخصيّة أو مصالح فتويّة أو أنّ الحكّماء فيها

(1) سورة الأنفال، الآية 46.

ماتوا أو باتوا لا يُصغى إليهم، أو كان النزاع نتيجة أن من يقود هذه الإمبراطورية كان مجموعة من السفهاء أو الحمقى، ثم ما لبث النزاع أن تطوّر إلى صراعٍ ثم اقتتالٍ داخلي، وأدّى ذلك إلى انهيار تلك الإمبراطوريات العظمى.

من أمثلة ذلك الإمبراطورية الرومانية التي كانت مثالاً للعظمة والعنفوان، إلا أنك لا تجد لها اليوم أثرًا. فأين كانت الإمبراطورية الرومانية سابقًا وأين هي روما ودولة إيطاليا اليوم؟

إذ، نحن نتعرّف على السنن ونفهمها من خلال قراءة التاريخ، وكذا الأمر في ما يخصّ تاريخنا الإسلامي وما يعيننا كأمةٍ إسلاميةٍ، حيث هناك قضايا كثيرة وتجارب كبيرة جدًا يمكن أن نستفيد منها لحاضرنا ومستقبلنا. وسأطرح هنا مثالين:

المثال الأوّل: منذ هجرة النبي ﷺ والإنسان يسأل سؤالًا للتاريخ: إن دعوةً ومسيرةً بدأت برجلٍ واحدٍ هو محمّد بن عبد الله ﷺ، ولم يؤمن بها بادئ الأمر سوى شخصان هما عليّ وخديجة، ثم بدأ بعض المؤمنين يلتحقون بها بوتيرةٍ ضعيفةٍ، بحيث إنّه خلال ثلاث عشرة سنة من الدعوة الإسلامية لا يحكى سوى عن عشرات أو بضع مئات من الملتحقين بالإسلام، كيف يمكن لمثل هذه الدعوة أن تصل إلى ما وصلت إليه؟ كيف يمكن لرجلٍ هاجر من موطنه الأصليّ مكة متأمراً عليه لقتله أن يبنّي دولةً ويصنع أمةً وحضارةً تُخلّد في تاريخ البشرية، وينتسب إليها اليوم مليار ونصف إنسان،

حتى بات صوته وكلماته والآيات التي نزلت عليه تصل إلى كلّ أصقاع العالم؟ ثم أين أوجدها وفي أيّ بيئة أسسها؟ في صحراء قاحلة هي شبه الجزيرة العربيّة، وبين قوم يعيشون الجاهليّة، جاهليّة العمى والقسوة والغلظة، إلى درجة أنّ المرء منهم كان يدفن ابنته المولودة حديثاً ويدسّها في التراب حيّة. في هكذا مجتمع وبيئة وعادات وتقاليده، وفي هكذا مستوى ثقافي، جاء هذا الرجل وصنع هذه الأمّة العظيمة. هذا كله لم يحدث بالطبع صدفة، بل إنّ له أسبابه وعوامله، وله جهاده وتضحياته، فكيف حصل هذا الأمر العظيم؟

حينما نجيب على هذا السؤال من خلال دراسة سيرة رسول الله ﷺ والتعرّف على هذا الجزء من تاريخنا العظيم، يمكن لنا أن نستفيد دروساً ونستخلص عبراً ترتبط بشدّة بواقعا الحالي.

المثال الثاني: في مقابل السؤال المتقدم يُطرح سؤال آخر من زاوية ثانية، وهو أيضاً سؤال مهم وأساسي: كيف وقعت دولة هذا الرجل العظيم، بعد ثلاثين سنة فقط من وفاته، بين يديّ الذين قاتلوه وتآمروا عليه ولم يؤمنوا به حتى آخر لحظة؟ إنّ هذا سؤال محير، إذ كلّنا يعرف أنّ أبا سفيان وأولاده معاوية ويزيد⁽¹⁾، وكذلك المجموعة التي كانت تحيط بأبي سفيان من بني أميّة، لم يكونوا مؤمنين برسول الله ﷺ إلى ما قبل فتح مكّة والسنوات الأخيرة من حياة النبي ﷺ، وأنهم إنّما أعلنوا دخول الإسلام حينما انتصر

(1) يزيد بن أبي سفيان.

الإسلام عليهم وأسقط كل ما في أيديهم، وأنهم قبل ذلك لم يفوتوا فعلاً كان مقدوراً لهم في الحرب على رسول الله ﷺ ودينه الجديد وصحابته الكرام والمؤمنين والمؤمنات إلا وفعلوه، فشنت الحروب وقاموا بالتهجير والقتل وأحدثوا الفتى ومارسوا الاغتياى والغدر والطعن فى الظهر ومصادرة الأموال وتوسلوا بالتزوير والتضليل والحرب الإعلامية والنفسية.

وبملاحظة معطيات ذلك الزمان نقول: إننا نتحدى أحداً أن يقول إن هناك وسيلة كان بوسع أبى سفيان أن يتوسلها فى حربته على رسول الله ﷺ حتى يوم فتح مكة ولم يفعل! فهؤلاء قد فعلوا كل شيء يقدرون عليه، إلا أنهم يئسوا فى نهاية المطاف وأدركوا أن رسول الله ﷺ قد انتصر. ثم إنهم حتى فى اللحظة التى أرادوا أن يعلنوا فيها دخولهم الإسلام كانوا يتحدثون عن «سلطان محمد» لا عن «دين محمد»، لأنهم كانوا يرون المسألة سياسية، وكانوا ينظرون إلى هذا الدين بوصفه مشروع سلطة ومُلك، ولم يروه ديناً سماوياً ولا إخراجاً للناس من الظلمات إلى النور، ولا تعاليم توصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

ولكن على الرغم من ذلك كله، وقف رسول الله ﷺ، لعطفه ورحمته وكرمه ورفعة أخلاقه، بعد فتح مكة وعفا عنهم وخاطبهم قائلاً: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ»⁽¹⁾، وبات هذا المصطلح منذ ذلك اليوم معروفاً فى التاريخ الإسلامى. من هم هؤلاء الطلقاء؟ هم

(1) ابن شهر آشوب، محمد بن على، مناقب آل أبى طالب، ج1، ص 209.

الذين قاتلوا رسول الله ﷺ حتى الرمح الأخير، وعندما فُتحت مكة وهُزموا، وكان من حق رسول الله ﷺ أن يعاقبهم ويقتص منهم جزاء كل المآسي والآلام التي ألحقوها به وبأصحابه وبأهل بيته وبمسيرته وحركته، لم يفعل ذلك، بل عفا عنهم وقال لهم: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ». هؤلاء هم الذين أُطلق عليهم اسم «الطلاق»، ثم أُطلق على أولادهم الذين وُلدوا لاحقاً اسم «أبناء الطلاق»، وهذا المصطلح يتردد كثيراً في المجالس الحسينية. فالطلاق هم أبو سفيان ومعاوية بن أبي سفيان ويزيد بن أبي سفيان، وأبناء الطلاق هم يزيد بن معاوية وإخوته وأبناء عمومته.

والسؤال الذي يحير العقول والألباب هو: كيف وقعت دولة رسول الله ﷺ وأُمته بعد ثلاثين سنة من وفاته بين يدي الطلاق هؤلاء؟ وهو سؤال أساسي ومهم للغاية، لا لأجل قراءة التاريخ فحسب، بل لأجل واقعنا المعاصر أيضاً، إذ إن هذه الحادثة وهذه الظروف قد تتكرر في أي مرحلة من مراحل حاضرنا أو مستقبلنا.

أما السؤال الأصعب من هذا، فهو أنه: كيف أمكن بعد خمسين سنة فقط من وفاة رسول الله ﷺ، أي في وقت كانت ذكرى رسول الله ﷺ ما تزال حيّة في الأمة، وكانت كلماته وسيرته وحركته وسكناته كلها حاضرة في أذهان الناس ومحفورة في ذاكرتهم، بل وكان عدد كبير من صحابته ما يزالون على قيد الحياة ينقلون للناس سيرة نبيهم، أقول: كيف والحال هذه يُحاصر أهل بيت رسول الله ﷺ وسبطه الوحيد الحسين عليه السلام وحفيدته

زينب عليها السلام وبناته مع قلّة من أنصارهم المؤمنين، ويُجَوِّعون ويُمنَع عنهم الماء، ويُرهبون ويُخَوِّفون ويُهَدِّدون بالقتل وتُفَرِّض عليهم خيارات مخالفة لدينهم ولدين رسول الله ﷺ، ثم يُقتَلون بأفْظع طريقةٍ ويُقَطَّعون وتُحَزَّ رؤوسهم ويُجَزَّر بهم وتُسبى نساؤهم وأطفالهم؟! كيف يُعَقَّل هذا؟ وكيف يمكن أن يحصل؟ نحن هنا أمام قصّة وحدث تاريخي في غاية الأهميّة، ويحتاج إلى وقفةٍ وتقييمٍ لاستلهام العبر والاستفادة من التجارب.

في المحصّلة، إنّ الاستفادة من تجارب التاريخ تتطلّب أن نتوجّه نحو التاريخ ونقرأه ونبحث فيه وندرسه، لا أن نُفَلِّ باب التاريخ ونقول: لا علاقة لنا بالماضي، فلا تُعيدونا إليه! فحادثة كربلاء مثلاً تمثّل واحدةً من أعظم الأحداث التاريخيّة المليئة بالعبر والدروس والدلالات، على الصعيد الفكريّ، الإيمانيّ، العقائديّ، الثقافيّ، الأخلاقيّ، الروحيّ، المعنويّ، السياسيّ، الجهاديّ، وجميع الصعد الأخرى.

• الفائدة الثالثة: التثبيت

من أهمّ فوائد الرجوع إلى التاريخ وقراءة قصص الماضين ما يتعلّق بالبُعد النفسي والمعنوي، وهو التثبيت. يقول الله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁾.

(1) سورة هود، الآية 120.

فكل فرد أو جماعة أو شعب أو أمة يمتلكون بما يتناسب مع ظروف الزمان والمكان وتطوراتهما مجموعة من الفرص، ويواجهون في المقابل مجموعة من التحديات والتهديدات والمخاطر، علماً أنّ الصراعات والضغوطات تلازم البشر على وجه الأرض منذ بدء الخليقة. وإن من الوارد جداً في مواجهة هذه الضغوطات والصعوبات والتهديدات، وأمام ما يواجهه من نزف وجراح، أن يتملك الإنسان التعب أو يسيطر عليه السأم والبرم في كافة مجالات الحياة، من عمل ودراسة وجهاد ومقاومة وسعي وبحث وغير ذلك، بل وقد يصل به الأمر إلى الاستسلام. بل أكثر من ذلك أيضاً، إذ وصل الحال ببعض الناس أن تركوا جبهة الحق والتحقوا بجبهة الباطل وهم مدركون لذلك، وهم إمّا فعلوا ذلك بسبب خوفهم وضعفهم وتعبهم وبرمهم، وهذا الأمر له شواهد على طول التاريخ.

إنّ قراءة أحداث التاريخ وقصص الحق، والتي ذكر الله سبحانه وتعالى كثيراً منها في كتابه الكريم، تعتبر من أهمّ عوامل الثبات في مقابل كلّ هذه الصعاب التي تواجه البشر، لأن من شأن قراءة هذه القصص والأحداث تثبيت القلوب وإبقاء شعلة الأمل مضيئة، بل وتفعيل روح الأمل من جديد وإعطاء العزم والإرادة والقوّة. ونضرب في ما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

المثال الأول: إنّنا حينما نقرأ تاريخ المؤمنين الذين عاشوا قبلنا، ندرك كم تحمّلوا من الصعاب والشدائد، وكم واجهوا من التهديدات

والمخاطر، وكم خاضوا من الحروب والمعارك، وكم واجهوا من القتل والتعذيب من أجل الحفاظ على دينهم وإيمانهم، فصبروا وصمدوا وتحملوا، ولم يتراجعوا ولم يستسلموا ولم يضعفوا ولم يهنوا، حتَّى خُتِمَ لهم بإحدى الحُسْنَيْنِ: النصر أو الشهادة. حينما نقرأ تاريخ هؤلاء المؤمنين فإنَّ ذلك يثبِّتُنا ويقوِّينا، لأنَّنا حينئذٍ نعلم أنَّ التاريخ لم يخلُ من أمثال هذه النماذج، فنعلم أنَّنا أيضًا لا ينقصنا شيء حتَّى نكون مثلهم، فنتعلم منهم ونقتدي بهم ونسير على خطاهم.

المثال الثاني: كما أنَّنا حينما نقرأ التاريخ نجد أنَّ كثيرًا من تجارب المؤمنين وتحدياتهم لم تكن خاتمتها بالشهادة بالمعنى الخاص أو المعنى العام، بل انتهت بنصر المؤمنين. فكثيرًا ما نقرأ في التاريخ قصصًا تحكي عن انتصار قلة من المؤمنين على فئة كبيرة وقويَّة وعظيمة من الكافرين، كالذي نقرؤه في قصة معركة بدر وغيرها من أحداث دعوة رسول الله ﷺ، وكذلك قصص الأنبياء السابقين أيضًا.

وفي القرآن الكريم، يُخبرنا الله سبحانه وتعالى أنَّ المؤمنين كان يصل الأمر بهم أحيانًا إلى مرحلة اليأس: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾⁽¹⁾، فكانت تتقطَّع بهم السبل ويصلون إلى قناعةٍ بانعدام الفرص، فيستعدُّون لتلقِّي الهزيمة ويفقدون الأمل بالنصر والغلبة

(1) سورة يوسف، الآية 110.

وتجاوز المحنة، ولكن فجأةً يُنزل الله نصره عليهم فتقلب الكفة لصالحهم، وهذا له نماذج ومصاديق كثيرة في التاريخ.

المثال الثالث: ثم إنَّ هذا الأمر لا يقتصر على تاريخ المؤمنين وقصصهم فقط، بل حتَّى حينما نقرأ تاريخ غير المؤمنين نجد قصصاً غريبةً وعجيبةً توقظ الأمل بالغيب والأمل بالمستقبل. فكم من أمرٍ لم تكن البشريّة متوقّعةً له، ولكنه كان ثابتاً في تقدير الله سبحانه وتعالى! وكم في قصص التاريخ من معركةٍ كانت الغلبة فيها محسومةً لجيشٍ وفق جميع المقاييس الماديّة، ثم قُلبت الكفة فيها بسبب عامل بسيط، فبات الغالب مغلوباً!

ولا مجال في هذا البحث المختصر لاستعراض نماذج على هذا الأمر، ولكنَّ تاريخ البشريّة - بل وواقعها المعاصر أيضاً - يحكي لنا عن قادة وشخصيّات كانت مسجونةً ومحكوماً عليها بالإعدام ولا أمل لها بالخروج من السجن، بل كان الحُكم قريبَ التنفيذ في حقّها، ولكن فجأةً وقعت حادثة معيّنة في البلاد، ثم تطوّرت وتسارعت وانقلبت الأحوال، وسُرعان ما انتهى الأمر بالحاكم سجيناً بعدما كان حكم الإعدام بيده، وغدا السجين حاكماً ورئيساً بعدما كان قريباً من حبل المشنقة. وهذا ليس بعزيرٍ ولا قليلٍ في التاريخ.

هذا ما نسمّيه في ثقافتنا الدينيّة بـ«الغيب»، ولا ندري ما يحمل لنا للمستقبل، وهو بلا شكَّ جزءٌ من وقائع التاريخ البشري وحاضره. نعم، إننا لا نوكل أمرنا للمجهول، ولكننا نشاهد بالوجدان أنّنا في أحيان كثيرة نُخطّط وفق حسابات دقيقة ومدروسة، ولكننا قد

نغفل عن تفصيل معيّن ولا نلتفت إليه ولا يخطر في بالنا أبدًا، أو قد نلتفت إليه ولكن لا نعطيه حجمه الصحيح، ثم نجد أنّ هذا التفصيل هو الذي غيّر مجرى الأحداث.

عندما نرجع إلى التاريخ ونقرأ أحداثه، وخاصّةً قصص الأنبياء والأولياء والنصرة الإلهيّة لهم، فإنّ هذا يؤدّي إلى تثبيتنا، ويقدّم لنا الأسوة والقُدوة، وما أحوج شعوبنا في كلّ جيلٍ إلى القدوة والأسوة وإلى أمثال هذه النماذج والرموز. إنّ بعض الشعوب تفتقر في تاريخها إلى القدوة والأسوة والرموز والأبطال، ولذا نجدها تعمل على تضخيم بعض الشخصيّات وصناعة الأساطير الوهميّة، أمّا نحن فإنّنا أمةٌ تمتلك تاريخًا عظيمًا مشرفًا ومليئًا بالشخصيّات والأبطال والرموز ومَن هم أسوة وقُدوة في كافّة الميادين والصعد، ولكنّا نحتاج إلى استحضار هذه الرموز، واستذكّار هذا التاريخ المشرف والتجارب الملهمة، والتعرّف على ما ممتلكه من عناصر قوّة، كي نعرف أنّنا أمةٌ قادرة على الصمود والنهوض وقادرة على البقاء والثبات، فلا نسقط أمام التهديد والتهويل، بل نحمل الأمل بأنّنا نستطيع التغلّب على الظروف الصعبة وتجاوزها.

ولا يخفى على أحدٍ ما لهذا التثبيت من أثرٍ على واقع أمتنا، إذ الأعداء في سعيٍّ دائمٍ للضغط علينا وترهيبنا وإضعافنا. وخير مثالٍ على ذلك ما يواجهه الشعب الفلسطيني من ضغوطات متعدّدة، من حصار وحروب وخذلان وطعن في الظهر واتّفاقيّات سلامٍ وتطبيعٍ ليست بجديدةٍ إلّا أنّهم يُظهرونها للعلن بين الفينة

والأخرى، كل هذه الضغوطات تنصبّ في إطار إضعاف الشعب الفلسطيني ودفعه نحو الاستسلام، فإذا ثبت الشعب الفلسطيني ولم يستسلم فإنّ كل تلك المساعي لن تصل إلى أيّ نتيجة.

كربلاء: الحادثة الاستثنائية

نستنتج ممّا تقدّم أنّ العودة إلى التاريخ تحمل فوائد جمّة، فهي من شأنها أن تورثنا الفهم الصحيح وتمنحنا العبرة والدروس وتجدد فينا الثبات والعزم والأمل والثقة، وهذا ما يفتح لنا الباب للدخول إلى حادثة كربلاء بوصفها حادثة استثنائية في التاريخ الإسلامي، سواء في ما سبقها أو جرى بعدها من أحداث، فإنّ فهم هذه المرحلة من التاريخ ودراسة أحداثها يمثّل مدخلاً لفهم واقع أمّتنا، ويقدّم لنا دروساً وعبراً ودلالات، ويصنع لنا الأسوة والقدوة والأبطال والرموز، هذا كلّهُ فضلاً عمّا في هذه الحادثة من بُعد معنوي وروحي. ومن هنا كان هذا أحد أسباب الإصرار على الإحياء الدائم لهذه المناسبة.

بالطبع، إنّ هذه المناسبة يجب أن تكون مناسبة يتغذّى منها العقل والقلب على حدٍ سواء، أي أن نتغذّى منها على المستوى المعرفي وكذلك على المستوى الروحي والنفسي والعاطفي. فيجب من جهة أن نتكلّم عمّا حصل في تلك الحادثة وكيف نستفيد منها، الدروس والعبر، ويجب من جهة أخرى أن نتفاعل معها بالبُعد

العاطفي والروحي، ولكن المعرفة متقدّمة على العاطفة، لأنّنا حينما نعرف من هم هؤلاء الذين كانوا في كربلاء، حينما نعرف من هو الحسين عليه السلام وماذا يمثّل، ومن هي السيّدة زينب عليها السلام، ومن هم الذين كانوا مع الحسين عليه السلام في كربلاء ووقفوا معه، وفي وجه من وقفوا، وماذا قالوا وماذا فعلوا وماذا تحمّلوا من مظلوميّة وغربة، وحينما نعرف ماذا قدّم هؤلاء للإسلام والأمة والبشريّة، وحينما نعرف حجم التضحيات التي قدّموها لأجلنا ولأجل إيماننا وديننا وقيمنا ودياننا وآخرتنا، فحينها سنُدرك عظمة هؤلاء حقًّا، وسنزداد حبًّا وعشقًا لهم وارتباطًا وتعلّقًا بهم، وعندما يزداد هذا الحبّ والعشق والشوق والاعتقاد والإيمان، فمن الطبيعي حينها أن يكون لاستشهادهم ومقتلهم حرارةً في قلوبنا تُترجم دموعًا في الأعين وآهاتٍ في الأفواه وزفراتٍ في الصدور. إنّ هذه الدموع والآهات والأحزان تمثّل ذخيرةً وقوّةً لنا، وهي عطيةٌ قدّمتها لنا كربلاء، عطيةٌ لديّنا ولاخرتنا أيضًا.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّق جميع المحبّين لإحياء هذه المناسبة بأفضل طريقة ممكنة، وأن تكون هذه الليالي والأيام أيضًا فرصةً للمعرفة والقراءة والدراسة والعودة للتاريخ، فلا نكتفي بما نسمعه من خطابٍ هنا ومجلس عزاءٍ هناك، بل نغتني ما نعيشه من حالة إقبالٍ في هذه الليالي والأيام، فنقرأ ونطالع ونرجع في هذا الشهر إلى الحسين عليه السلام وإلى السيّدة زينب عليها السلام وإلى هذه الحادثة العظيمة، فننزود منها معرفةً وحبًّا وشوقًا، ونأخذ منها

العزم لنواصل الطريق، لأنَّ طريقنا هو طريق كربلاء، وهدفنا هو هدفها، وغايتنا هي غايتها، فما سوف يواجهنا هي صعاب كربلاء، والمطلوب منّا هو تضحيات كربلاء.

الفصل الثاني

التاريخ وتحمل المسؤولية

الليلة الثالثة من شهر محرم 1442هـ
(آب 2020 م)



في العام 60 للهجرة، وقبل وفاة معاوية بن أبي سفيان الذي حكم بلاد المسلمين ما يقارب العشرين عامًا، عمد الأخير إلى أخذ البيعة في مختلف البلاد الإسلاميّة لابنه يزيد.

ظروف انتقال السلطة إلى يزيد

يزيد هذا هو من جيل أبناء الطلقاء، بمعنى أنّه لم يولد في زمن رسول الله ﷺ، ولم يكن في مكّة حينما أُطلق اسم «الطلقاء» على تلك الفئة التي حاربت الإسلام حتّى آخر رمقٍ إلى أن دخلته مهزومةً بعد فتح مكّة. وبأخذه البيعة لابنه يزيد، كان معاوية في ذلك الوقت يؤسّس لفكرة جديدة في التاريخ الإسلامي، وهي فكرة «ولاية العهد» و«ولي العهد». ففي نظام الخلافة الإسلاميّة الذي اتّبّع بعد وفاة رسول الله ﷺ، لم يكن هناك وجود لوليّ عهدٍ للخليفة. وفي الحقيقة، إنّ فكرة ولاية العهد التي ظهرت في آخر سنوات حكم معاوية، تمثّل واحدًا من الشواهد على مسألة المُلْك العضوض التي وردت في الروايات، والتي تحدّثت عن مُلْك عضوض ظالم سوف يحكم الأمّة الإسلاميّة وبلاد المسلمين في مرحلةٍ طويلةٍ من مراحل التاريخ الإسلامي.

وعلى أية حال، وصل الخبر إلى المدينة المنورة بأن معاوية قد عين ابنه يزيد ولياً للعهد وأخذ البيعة له من المسلمين، وبدأت مساعي النظام الأموي لأخذ البيعة ليزيد من أهل المدينة، فبايع عددٌ كبيرٌ من أهل المدينة باستثناء قلّة من رجالها البارزين. ومن بين هذه القلّة التي لم تباع على الرغم من كلّ تهديدات معاوية وضغوطه وترهيبه وترغيبه كان الإمام الحسين بن علي عليه السلام. واستمرّ الحال هكذا حتّى وصل خبر وفاة معاوية إلى المدينة، وأعلن عن تسلّم يزيد للملك، ولا نقول للخلافة، إذ لم يكن يزيد ولا معاوية قبله خليفةً لرسول الله ﷺ، بل هو مُلك استأثروا به فحكموا المسلمين والبلاد الإسلاميّة بوسائل غير مشروعة ولا مقبولة.

موقف الإمام الحسين عليه السلام

ليس هذا ما نريد الحديث عنه هنا، إنّما كيفيّة تصرّف الإمام الحسين عليه السلام في مقابل هذا الأمر. جميعنا يعرف كيف تصرّف الحسين عليه السلام، ولكننا نودّ الدخول إلى هذا البحث من جهة أخرى، فنقول:

لقد كان بإمكان الإمام الحسين عليه السلام أن يتصرّف بطريقة مختلفة. فمثلاً، كان بإمكانه أن يلزم منزله ولا يغادر المدينة ولا يخرج بعائلته وأهل بيته، فيحافظ على حياته وحياتهم، ويضمن لنفسه ولعائلته وأولاده وإخوته وأخواته وأقاربه حياةً هانئةً. أضف إلى

ذلك أنَّ عدم الخروج في وجه يزيد لم يكن ليؤثر على حياته الدينيَّة الشخصية ولا منزلته وقيَّمته بين المسلمين، إذ إنَّه لم يكن في المدينة ممنوعاً من الصلاة والصوم وتأدية الوظائف العباديَّة، وكان بوسعه أن يذهب يومياً إلى مسجد جدّه رسول الله ﷺ، ويزور قبره وقبر أمّه الزهراء ع، وأخيه الحسن ع، وأن يقصد بيت الله الحرام للحجّ كلّ عام والعمرة أكثر من مرّة في العام، وكانت كرامته الشخصية ستظلّ محفوظةً بين الناس، وكذا منزلته بينهم، فهو شخصيَّة محترمة لدى جميع المسلمين، لأنَّه سبط رسول الله ﷺ والبقية الباقية من آل بيته ع، وابن أمير المؤمنين ع، وابن سيِّدة نساء العالمين ع، وسيّد شباب أهل الجنَّة، ولذلك كان معظماً ومُكرِّماً ومُحترماً عند جميع المسلمين، حتّى أولئك الذين يختلفون معه في الموقف السياسي.

كما أنَّ دوره الاجتماعي والعلمي ما كان ليتضرّر لو لم يخرج في وجه يزيد، بل كان بإمكان فقراء المسلمين أن يقصدوه لطلب العون والمساعدة، وكان بوسع المسلمين كافّة أن يأتوه وي طرحوا عليه الأسئلة العلميَّة والعقائديَّة والفقهية، وهو بدوره يجيب عن كافّة أسئلتهم وينشر العلم في العالم الإسلامي، ولكن من دون أن يتدخّل في مسألة الحكم والخلافة، بل يحدّ نفسه بشكل كامل عن هذه المعركة وهذا الصراع، وإذا اضطرّ للبيع، فله أن يقدّم بيعةً شكليَّةً ظاهريَّة، ويقول للناس أنّه بايع تحت تهديد السيف، فهو سيكون معذوراً في بيعته ليزيد في هذه الفرضية.

إِذَا، كان بإمكان الإمام الحسين عليه السلام أن يسلك مسلكًا مختلفًا تمامًا عن المسلك الذي سلكه وذهب إليه، فلماذا لم يختَر هذا المسلك الذي يضمن بقاءه على قيد الحياة، وفي الوقت نفسه يحافظ له على منزلته الدينيّة بين المسلمين؟

الجواب هو أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يفعل ذلك، لأنّه اختار أن يتحمّل المسؤولية التي يفرضها عليه موقعه الإنساني بوصفه الإنسان الكامل، وموقعه الإسلامي والديني والشرعي بوصفه سبط رسول الله والبقية الباقية من بيت النبوة، والمسؤولية التي يفرضها الظرف الزماني التي كانت تمرّ به الأمة الإسلامية، فتحمل كامل هذه المسؤولية ولم يتخلّ عنها على الإطلاق.

ففي زمن معاوية، كانت الأمة الإسلامية تعيش ظروفًا معيّنة يمكن بسببها تأجيل المواجهة مع النظام الأموي، وهذه الظروف ترتبط بمعطيات الزمان والمكان وحيثيّات جدوى المواجهة. ولكنّ الأمر اختلف حينما تسلّم يزيد السلطة والحكم، إذ كان ذلك بتقدير الإمام الحسين عليه السلام صافرة الإنذار الأخيرة للأمة الإسلامية وخطرًا من شأنه ألا يبقى لها باقية. وقد كان هذا الخطر العظيم بيّنًا وظاهرًا للعيان، حتّى وإن غضيّنا النظر عن العلم الخاص بالإمام عليه السلام الذي نقول به نحن الشيعة. إذ بملاحظة صفات يزيد يُعلَم أنّه إذا ابتليت الأمة براعٍ مثله، فعلى الإسلام السلام، وإذا كان رأس الحكم الإسلامي شخصًا من هذا القبيل، فالخطر سوف يُحدق بالإسلام والأمة وتدينها ووحدتها والتزامها بالدين الإسلامي.

وعندما يصبح الإسلام في خطرٍ بوصفه دينًا ورسالةً، وعندما تصبح الأمة بكاملها في خطرٍ، فلا شكَّ بأنَّ الإمام عليه السلام لن يتخلَّى عن مسؤوليته تجاه الإسلام والأمة، فإذا كان قادرًا على مواجهة هذا الخطر ومجاوبته والتصدي له، فإنَّه لن يتوانى عن ذلك على الإطلاق، مهما كانت التضحيات جسيمة.

ومن هنا نريد أن نعرِّج على بحثٍ قد يكون ذا طابع وخلفيّة ثقافيّة بحتة، إلّا أنّ له مصاديقًا وآثارًا ونتائج سياسيّة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما نعيشه اليوم في لبنان والمنطقة، وكذلك بما يجري من نقاشات وجدالات حول الخيارات السياسيّة التي ينبغي اختيارها.

تحمل المسؤولية تجاه الغير

هذا البحث هو بحث تحمل المسؤولية، ونريد من خلاله أن نبين أولًا أنّ هناك مسؤولية ملقاة على عاتقنا، ثم أنّ هذه المسؤولية يجب علينا أن نتحملها. ولكن قبل الدخول في أصل البحث نجد من اللازم التنبيه إلى أمرين من الأمور التي لا ينبغي أن نغفل عنها، وهما:

الأول: أنّنا حينما نتكلّم عن تحمل المسؤولية، فإنّ هذا مشروط بوجود القدرة، لأنّ الله سبحانه وتعالى لم يكلف الناس بما لا يطيقون ولم يأمرهم بتحمّل ما هو فوق قدراتهم.

الثاني: إنّ المسؤولية التي نحن بصدد الكلام عنها هي المسؤولية تجاه الإنسان الآخر ومسؤولية الإنسان تجاه أخيه الإنسان، أمّا المسؤولية تجاه الله سبحانه وتعالى وتجاه الكون وبقية المخلوقات والموجودات، فهو بحثٌ آخر خارج عمّا نحن فيه.

• هل يوجد شيء اسمه مسؤولية؟

أول سؤال يُطرح في هذا البحث: هل لدينا مسؤولية تجاه الآخرين أم لا؟ وفي الجواب عن هذا السؤال هناك اتّجاهان: الاتّجاه الأول: هو الاتّجاه والأيدولوجيا والعقيدة التي تسوق البشرية بشكلٍ تدريجي نحو الأنانية، والتي تجعل الأصالة للفرد دون سواه، فيكون المهمّ بالنسبة لكلِّ فردٍ هو: أن أعيش أنا، أن أكل أنا، أن أشرب أنا، أن أكون آمنًا أنا، أن تكون صحّتي أنا جيّدة، وبكلمة واحدة: تكون الأصالة للأنا، ولا يكون للفرد أيّ مسؤولية تجاه غيره. وهذا الاتّجاه موجود وله رواج في بعض المجتمعات والمدارس الفكرية في العالم.

الاتّجاه الثاني: هو الاتّجاه الذي يذهب إلى وجود مسؤولية للفرد تجاه غيره من الناس. فكما أنّ من واجب الإنسان أن يهتمّ بأمور نفسه، فإنّ عليه أيضًا واجبًا تجاه أمور غيره. إذن، ثمة بحثٌ ونقاشٌ في أنّه: هل للإنسان مسؤولية تجاه غيره أو لا؟

وفي مقام الجواب نقول: إنّهُ لمن الواضح وجود مسؤولية تجاه الآخرين، وذلك بالرجوع إلى الفطرة الإنسانية والعقل الإنساني قبل

الرجوع إلى تعاليم الأديان. فنحن إذا رجعنا إلى الفطرة والعقل ندرك أنّ لدينا مسؤولية تجاه الغير، مع غضّ النظر عن دائرة هذه المسؤولية والغير الذين تشملهم هذه المسؤولية. فلو بدأنا بأضيّق دائرة مُتصوِّرة، فإنّ كلّ إنسانٍ يشعر بفطرته ويُدرك بعقله أنّ لديه مسؤولية تجاه والدَيْه مثلاً، وذلك بسبب فضلها عليه ولأنّ الأخلاق تقتضي ذلك. وكذلك الحال بالنسبة لإخوته، فإنّه وإياهم عبارة عن عائلة واحدة، يسكنون منزلاً واحداً، ويتشاركون همومًا وظروفاً واحدةً، ولذلك يشعر الإنسان بنداٍ قلبي وعاطفي وفطري، بل وعقليّ أيضاً، يقول له أنّه يحمل مسؤولية تجاههم. ثمّ حينما يبني هذا الإنسان عائلته الخاصّة، فيختار زوجةً وينجب أولاداً، يأتيه ذلك النداء مرّةً أخرى، ويُدرك بفطرته وعقله أنّ لديه مسؤولية تجاه زوجته وأولاده. وهكذا تتّسع دائرة المسؤولية شيئاً فشيئاً تجاه سائر الأقارب والأرحام.

عند الكلام عن المسؤولية تجاه الوالدين مثلاً، تُطرح مسائل من قبيل: احترام الوالدين وتقديرهما وبرّهما، وعند الكلام عن المسؤولية تجاه الأرحام، تُطرح مسائل من قبيل: صلة الرحم والتواصل مع الأرحام وزيارتهم واحترامهم ومحبتهم ومودّتهم. وهذا كلّهُ من مقتضيات الفطرة والعقل الإنسانيّين، ومن يخالف هذه الأمور فإنّه يخالف بذلك فطرته وعقله، بمعزلٍ عن الأحكام والتعاليم الدينيّة.

إِلَّا أَنَّ الْمَسْئُولِيَّةَ تَجَاهَهُمْ لَا تَنْحَصِرُ بِمَا ذُكِرَ مِنْ أَمْثَلَةٍ، بَلْ ثَمَّةُ
مَسْئُولِيَّاتٍ أُخْرَى يَنْبَغِي لِلْفَرْدِ أَنْ يَتَحَمَّلَهَا تَجَاهَ أَهْلِهِ وَأَرْحَامِهِ.
فَمَثَلًا، إِذَا ابْتُلِيَ الْوَالِدُ الْفَرْدَ أَوْ وَالِدَتُهُ أَوْ أَخُوهُ أَوْ أُخْتُهُ أَوْ زَوْجَتُهُ أَوْ
ابْنُهُ أَوْ أَحَدُ أَرْحَامِهِ بِمَرَضٍ مَا، أَوْ وَاجِهَ مُشْكَلَةً اقْتِصَادِيَّةً أَوْصَلَتْهُ
إِلَى حَدِّ الْجُوعِ أَوْ عَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى دَفْعِ إِيجَارِ الْمَنْزَلِ مَثَلًا - وَهَذِهِ
أَمْثَلَةٌ نَشَاهِدُهَا بِأَعْيُنِنَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، فَلَا يُمْكِنُ لِهَذَا الْفَرْدِ حِينَئِذٍ
أَنْ يَقُولَ: لَا عِلَاقَةَ لِي بِذَلِكَ! وَكَذَلِكَ الْحَالُ لَوْ تَعَرَّضَ أَهْلُهُ أَوْ أَرْحَامُهُ
لِلْخَطَرِ، كَمَا لَوْ اعْتَدَى عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ التَّكْفِيرِيِّينَ أَوْ الْإِرْهَابِيِّينَ
أَوْ الْعَصَابَاتِ الْمَجْرَمَةِ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقُولَ: لَا شَأْنٌ لِي بِذَلِكَ! بَلْ
إِذَا وُجِدَ مَنْ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ، فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَنْقُضُ الْفِطْرَةَ وَالْعَقْلَ
الْإِنْسَانِيِّينَ، إِذْ إِنَّ فِطْرَتَنَا وَعَقْلَنَا يَحْكُمَانِ بِمَسْئُولِيَّتِنَا تَجَاهَ آبَائِنَا
وَأَوْلَادِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَأَرْحَامِنَا وَأَقَارِبِنَا.

ثُمَّ فَلْنَتَوَسَّعْ بِالْدَائِرَةِ قَلِيلًا وَنَتَكَلَّمْ عَنِ الْجِيرَانِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْإِنْسَانَ
يَتَشَارَكُ مَعَ جِيرَانِهِ بِبَيْئَةٍ عَيْشٍ وَاحِدَةٍ، وَالْإِنْسَانُ يَعِيشُ مَعَ جِيرَانِهِ
فِي حَيٍّ وَاحِدٍ، يَشْرَبُونَ مِنَ الْمَاءِ نَفْسَهُ وَيَتَنَفَّسُونَ الْهَوَاءَ نَفْسَهُ،
فَهَلْ تَوْجَدُ لِلْجِيرَانِ مَسْئُولِيَّةَ تَجَاهَ بَعْضِهِمْ أَمْ لَا؟ هَلْ لِلْإِنْسَانِ
مَسْئُولِيَّةَ تَجَاهَ جِيرَانِهِ أَمْ لَا؟

وَسَنَجِيبُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ أَيْضًا بِالرُّجُوعِ إِلَى الْفِطْرَةِ وَالْعَقْلِ
الْإِنْسَانِيِّينَ. إِنَّنَا إِذَا رَجَعْنَا إِلَى فِطْرَتِنَا وَعَقْلِنَا سَنَجِدُهُمَا يَقْضِيَانِ
بَأَنَّ لَدَيْنَا مَسْئُولِيَّةَ تَجَاهَ جِيرَانِنَا، مِنْ عَدَمِ إِيْذَائِهِمْ وَالْإِضْرَارِ بِهِمْ،

إلى احترامهم، والتعاون معهم، والتكامل في ما بيننا، ومساعدة بعضنا، إلى غير ذلك من أمور.

ثم إنَّ دائرة المسؤولية هذه تتسع لتشمل القرية والمدينة والمنطقة، بل وأكثر من ذلك، إذ يمكن القول على ضوء أحكام الفطرة والعقل بأنَّ للإنسان مسؤوليةً تجاه كلِّ إنسان وكلِّ جماعة بشرية يصل إليها أو يطلع على أخبارها وأحوالها ومشكلاتها وهمومها، أينما كانت في الكرة الأرضية. ولذلك فإنَّ المسؤوليات الملقاة على عاتق الإنسان في هذا الزمان، وعلى عاتقي وعاتقكم بوصفنا أفرادًا وجماعاتٍ وشعوبًا ونُخبًا، هي أثقل وأكبر بكثيرٍ من مسؤوليات الأجيال السابقة. لماذا؟ لأنَّ حجم الاطلاع والمعرفة ووصول الأخبار قد اختلف تمامًا في هذا الزمان واتسع اتساعًا عجيبيًا، وابتَّسع الاطلاع والمعرفة تتسع المسؤولية. فمثلًا، لو كان ثمة مكان في قارة ما أو جزيرة ما في العالم، ولكننا لا نعرف أساسًا ما إذا كان يسكنه أناس أم لا، وإن وُجدوا، فلا نعرف هل يعانون من مشكلات أم لا، هل يواجهون جوعًا أم لا، هل يُعتدى عليهم أم لا، فبما أننا لا نعرف شيئًا من ذلك، فمن الطبيعي ألا نحمل أي مسؤولية تجاههم. ولكنَّ هذه المسؤولية تتولد بالمعرفة والاطلاع، ولذلك فإننا بمجرد أن نطلع على أحوال أولئك الناس ونعرف أنَّهم يعانون من مشكلةٍ ما، تتولد عندنا مسؤولية تجاههم، فحتَّى وإن كنَّا غير قادرين على تقديم يد العون إليهم، فإنَّ علينا على الأقل أن نتألم

لحالهم وندعو لهم، بل ونطالب أحدًا ما في العالم بمساعدتهم. هذا جزء من تحمّل المسؤولية، وهو مقتضى الفطرة والعقل.

ثم ما كان من الدين إلا أن أكّد حكم الفطرة والعقل، فاتّفقت جميع الأديان السماوية على مبدأ المسؤولية تجاه الغير، ولم يظهر خلاف ديني ولا مذهبي ولا فقهي حول هذا الأصل. نعم، قد توجد بعض الخلافات في تفاصيل المسؤولية وتحملها، ولكن أصل مبدأ المسؤولية متفق عليه بين جميع الأديان السماوية، وهي تحكم به بمختلف مذاهبها وفرقها تبعًا للفطرة والعقل. بل إننا نقول: إنّ الدين الإلهي متطابق مع الفطرة والعقل، بل هو مقتضى الفطرة والعقل، وأحكام الفطرة والعقل تتطابق فيما بينها وتتطابق مع الأحكام الدينية أيضًا.

ومن هنا نجد الدين الإسلامي يقول للإنسان: كما حكم عقلك وفطرتك، فإنّ برّ الوالدين واجب، وعقوق الوالدين حرام، وصلة الرحم واجبة، وقطع الرحم حرام، وكذلك الحال في سائر الأمثلة التي ذكرت.

• تحمّل المسؤولية أمرٌ فطري

اتّضح ممّا تقدّم وجود مسؤولية للإنسان تجاه سائر البشر، ويمكن لقائل أن يقول إنّّه لا حاجة لإقامة أيّ دليل عقلي وفكري على هذه المسألة، بل ولا حاجة لإقامة دليل من القرآن الكريم والكتب السماوية والأحاديث الشريفة على ذلك، لأنّ الكلام هنا هو عن أمر بديهي بيّن لا يحتاج إلى دليل. ولكن للأسف، فإننا أصبحنا

في زمنٍ نحتاج فيه للاستدلال حتّى على البديهيات، ولذلك فإنّنا سنعاود في ما يلي الاستدلال على المسألة فطريّاً.

قبل أيّام وقع الانفجار الضخم في مرفأ بيروت⁽¹⁾، قدّمَت أحياء بكاملها، وسقط عدد كبير من الشهداء والجرحى. وإنّنا أمام هذه الحادثة نطرح السؤال التالي أمام أيّ إنسان: إذا كنتَ في موقع الحادثة ومررتَ بجانب جريح مرمي على الأرض يصارع الموت، وكنتَ قادراً على مساعدة هذا الجريح ونقله إلى المستشفى، أو كان بإمكانك أن تنادي بعض الأشخاص لمساعدتك في نقله، ولكنك كنتَ لا تعرف من هو هذا الشخص، فلا تعرف ابن من هو، ولا من أيّ دين أو طائفة، ولا من أيّ حزب واتّجاه سياسي، ولا تعرف ما إذا كان عدوّاً لك أو محبّاً، بل غاية ما تعرفه هو أنّه إنسانٌ جريحٌ ملقى على قارعة الطريق يصارع الموت، فلو قلتَ في نفسك: إنّني لست معنياً ولا مسؤولاً تجاهه، بماذا سوف يحكم ضميرك وقلبك؟ وبماذا سوف يقضي عقلك؟ وماذا سيكون رأي الناس بحسب عقولهم وفطرتهم الإنسانيّة؟ جميعنا يعرف الجواب، لأنّ هذه هي طبيعة الإنسان. فإنّ الله سبحانه وتعالى قد أودع فينا إذ خلقنا فطرةً وجبلةً وعقلاً، تقضي كلها وتحكم بأننا لا بدّ أن نتحمّل المسؤولية تجاه الآخرين.

أو مثلاً إذا مرّت مجموعة من الأشخاص قرب شاطئ البحر فرأوا شخصاً في حال الغرق، وكانوا قادرين على مساعدته وإنقاذه، ألا

(1) وهو الانفجار الذي وقع في مرفأ بيروت عصر يوم الثلاثاء 4 آب 2020 م.

يجب عليهم فعل ذلك؟ بل حتّى لو لم يكونوا قادرين على النزول إلى البحر وإنقاذهم لعجزهم عن السباحة، أليس من واجبهـم أن يصرخوا وينادوا الآخرين كي يهبّوا لإنقاذه؟ لا شكّ بوجود ذلك، إذ هل يحكم عقل أو فطرة بجواز أن يقف إنسان موقف المتفرّج أمام هكذا حادثة ويقول: لا علاقة لي بذلك، وأنا غير مسؤول؟! بالطبع لا، وهذا فضلاً عن تعاليم الدين التي تحكم بوجود إنقاذ الغريق. بل أكثر من ذلك أيضاً، ففي تعاليم الدين الإسلامي، الصلاة التي لا تُترك بحالٍ لا تصحّ في مكان مغصوب، بل يجب أداؤها في مكان غير مغصوب، أمّا إنقاذ الغريق فإذا توقّف على العبور من مكان مغصوب، فإنّ ذلك لا يكون جائزاً فحسب، بل يكون واجباً أيضاً. إذن، إنسانيتنا، وفطرتنا، وعقولنا تقضي بأنّ لدينا مسؤوليّة تجاه الإنسان الآخر، سواءً أكان هذا الإنسان فرداً واحداً أو جماعةً بشريّة، فكلّ شعب مسؤول عن سائر الشعوب، وكلّ أمة مسؤولة عن سائر الأمم، ونحن بوصفنا جزءاً من البشريّة الموجودة على سطح هذه الأرض فإنّنا مسؤولون عن جميع إخواننا البشر، فكلّنا أولاد آدم ﷺ، وكلّنا ننتمي إلى أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدة. وهذا ما جاء الدين الإسلامي وسائر الأديان الإلهيّة لتكريسه، وعلى هذا كانت سيرة جميع الأنبياء ﷺ، وإلى هذا دعوا الناس وأرشدوهم. وإذا أردنا أن نضرب أمثلةً على هذه المسؤوليّات تتناسب مع مقتضيات الزمان الذي نعيشه، فإنّنا نقول: سواءً أكان الحديث عن دولة أو مسؤولين أو حكومة أو أحزاب أو جماعات أو حتّى أفراد،

فإذا فُرض وجود أناس فقراء ومحتاجين في بلدٍ من البلدان فإنَّ من واجب الجميع في ذلك البلد السعي لمساعدتهم وسدَّ حاجتهم في حال توقّرت القدرة، وليس لأحدٍ أن يقول أنّه غير مسؤول. وإذا انتشر وباء في ذلك البلد، فليس لأحدٍ أيضًا أن يقول أنّه غير مسؤول، بل حتّى مع وجود الدولة وتصديّها لمكافحة الوباء، فإن كلّ حزب أو جماعة أو فرد قادرٍ على فعل شيءٍ في هذا المجال، سيكون مسؤولًا بحكم العقل والفطرة والقيم الإنسانيّة، وكذلك بحكم تعاليم الأديان أيضًا. فمثلاً، إذا كان أحد أفراد المجتمع غنيًا وذا قدرة ماديّة كبيرة، فإنّ التعاليم الدينيّة تدعوه بدلاً من كنز الأموال وتكديسها أو التوجّه نحو الربح السريع وغير المشروع من الربا وما شابه ذلك، إلى السعي لمساعدة مجتمعه والنهوض به، حتّى وإن كان مؤدّيًا لكافّة الحقوق الشرعيّة الثابتة في ذمّته. فيمكنه العمل على إنشاء مصانع وتوفير فرص عمل للناس، كي تعمل وتؤمّن حاجاتها، فينقذها من الجوع والفقر، لا أن يقول: لا شأن لي بذلك فهو من واجبات الدولة. إذن، في مسائل من قبيل الجوع والفقر والبطالة والمرض وما شابه، كلّ إنسانٍ مسؤول عن إخوته من البشر، سواءً أكان في السلطة أم لا.

أو إذا اعتدى عدو على بلدٍ ما، مثلاً، كما حصل في جنوب لبنان إبّان الاجتياح الإسرائيلي، أو في منطقة البقاع حينما اعتدى عليها التكفيريّون، حيث سيطروا على جرودها وأرادوا الاعتداء على القرى والسكّان. فما هو الموقف الذي يجب على الإنسان اتّخاذه

في مثل هذا الظرف؟ هل نقول: كل شخص عليه أن يدافع عن بيته فقط ولا شأن له ببيوت الآخرين؟ أو أهل كل قرية يجب أن يدافعوا عن قريتهم ولا علاقة لأهل سائر القرى بهم؟ فإذا اعتُدي على البقاع مثلاً، فلا علاقة لأهل بيروت أو الشمال أو الجبل أو الجنوب بذلك! هل هذا هو ما يقضي به العقل أو الدين أو الفطرة الإنسانية؟! بالطبع لا، إذ لا يوجد أي منطق يحكم بمثل هذا الأمر، بل على العكس تماماً، يحكم العقل والفطرة والدين بوجوب أن يدافع الإنسان عن أهله وجيرانه وإخوانه وشعبه حينما يُعتدى عليهم وعلى قراهم وبيوتهم. نعم، هذا الواجب هو واجب كفائي، وهو واجب بمقدار الحاجة والكفاية، فلو كان الجنوب هو المُعتدى عليه، وكان تصدي أهل الجنوب للدفاع عنه كافياً، فإنّ هذا الوجوب يسقط عن أهل سائر المناطق، أمّا لو لم يكن تصديهم كافياً، بل احتاجوا إلى دعمٍ من البقاع والشمال وبقية المناطق، فإنّ واجب أهل تلك المناطق سيكون أن يتصدّوا لمساندة إخوانهم والدفاع عنهم والقتال إلى جانبهم. وليس لأحد أن يقول: إنني غير معنيّ بذلك لأنّ المنطقة المعتدى عليها ليست منطقتي، أو الطائفة المستهدفة ليست طائفتي، والعشيرة المحاربة ليست عشيرتي. فهذا ممّا لا يقبل به العقل ولا الأخلاق ولا الفطرة الإنسانية ولا أيّ دينٍ من الأديان. وكذلك إذا ما سقطت منطقة من المناطق تحت الاحتلال، كما لو سيطر العدو على جنوب لبنان مثلاً، فهل نقول: على أهل مدينة بنت جبيل تحرير مدينتهم ولا

شأن لهم بغيرها، وعلى أهل مدينة مرجعيون تحرير مدينتهم ولا علاقة لهم ببقية مدن الجنوب، وليس من مسؤولية أهل أي مدينة أو قرية أن يعملوا على تحرير سائر المدن والقرى؟! هل يقبل العقل والفطرة والدين بذلك؟! كلاً.

وفي المحصلة، فإن ثبوت المسؤولية عند الإنسان تجاه الآخرين أمر مفروغ منه. فمسؤوليات الإنسان لا تقتصر على الفرائض والواجبات الدينية الفردية فقط، إذ قد يتوهم البعض أنه إذا صلى صلواته الخمسة، وصام شهر رمضان، ودفع الزكاة والخمس، وحج مرة كل سنة، فإنه قد أتم كل ما عليه من مسؤوليات وواجبات. كلاً، فهذا جزء من الدين فقط، وهو جزء أساسي بلا شك، ولكنه ليس كل الدين. فبرّ الوالدين واجب أيضاً، وهو ليس مجرد مستحب أخلاقي، بل أمر واجب، وعقوق الوالدين حرام، وهو ليس مجرد مكروه أخلاقي أو عيب أخلاقي، بل هو أمر محرّم يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة. والله قد وعد في كتابه بأنه سيسأل جميع البشر عما فعلوه في الدنيا، وأنه سيعرض عليهم كتب أعمالهم التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة.

• اتّساع المسؤولية خارج حدود البلدان

من هنا نودّ أن نعرّج على مسألة في غاية الأهمية ترتبط بالشأن العام، وهي مسألة الحدود الجغرافية. هذه المسألة تمثّل إشكالية من الإشكاليات المرتبطة بالوعي والمعرفة والقناعات. ففي لبنان مثلاً، بدأ اللبنانيون في مرحلة معيّنة بالحديث عن الأمة اللبنانية

والكيان اللبناني والوطن اللبناني، وكثر الكلام عن الحدود اللبنانية ومساحة الـ 10,452 كيلومتر مربع التي تمثّل الكيان اللبناني الواحد. ولكننا مع ذلك نجد مثلاً أنّه إذا اهتمّ أحدٌ من أبناء منطقة معيّنة بشؤون منطقةٍ أخرى وشعر بمسؤوليّة تجاهها، فإنّ أهل تلك المنطقة يعترضون على ذلك بحجّة أنّه لا يحقّ لأيّ منطقةٍ أن تتدخل في الشؤون الداخليّة للمناطق الأخرى. وكذلك الحال في ما يتعلّق بالتدخل بالشؤون الداخليّة للطوائف، بل وفي الشؤون الداخليّة للمذاهب داخل الطوائف. فما هو أساس هذه الفكرة السائدة؟ وعلى أيّ مبدأ عقلي، فكري، ثقافي، إنساني، أخلاقي، ديني ووطني تستند؟ ومن أين وردت إلينا؟ إنّ هذه الفكرة ليس لها أساس عقلي ولا فكري ولا ثقافي ولا إنساني ولا أخلاقي ولا ديني ولا وطني، غاية الأمر أنّها أعراف تكرّست وانتشرت بيننا.

وهذا الأمر نجده للأسف بين البلدان أيضاً، فمن يعيش في لبنان لا يحقّ له أن يهتمّ بأمور سوريا أو العراق أو فلسطين، ولا أن يحمل أيّ مسؤوليّة تجاه البلدان الأخرى ولو كانت مجاورةً لبلده! إنّ مسألة الحدود الجغرافيّة هذه تمثّل نقطة جدلٍ ينبغي البحث فيها وعلاجها. ونحن نقول: إنّ هذه الحدود لا تُسقط المسؤوليّات عن الإنسان. نعم، قد تُقيّد وتُحدّد بعض هذه المسؤوليّات، ولكنها لا تُسقطها أبداً، إذ لا العقل ولا الفطرة ولا أيّ دينٍ من الأديان يحكم بسقوط المسؤوليّة عن الإنسان تجاه غيره من الناس بذريعة حدود جغرافيّة رسمتها أيدي السياسة. فمثلاً، تلك الشعوب التي

تعيش خارج لبنان، كالتّي تعيش مثلاً في سوريا، فلسطين، العراق، شمال إفريقيا، اليمن، شبه الجزيرة العربيّة، إيران وغيرها من البلدان التي يمكننا الاطّلاع على أحوالها ومعرفة أوضاعها، وكذلك يمكن أن يصلها صوتنا ومساعدتنا ومساعدتنا ولو بالحدّ الأدنى، إذا واجهت تلك الشعوب أزمة ماليّة واحتاجت إلى المساعدة وكنا قادرين على ذلك، فهل تسقط المسؤوليّة الأخلاقيّة والشرعيّة والدينيّة عنّا بذريعة الحدود الجغرافيّة؟ وهل يكون التصدي لمساعدة تلك الشعوب وتحملّ المسؤوليّة تجاهها تدخّلاً في شؤون الدول الأخرى؟ أو لو انتشر في إحدى تلك البلاد وباء كورونا مثلاً وكنا قادرين على تقديم المساعدة، أو حدثت مجاعة وكنا قادرين على تقديم يد العون، أو وقع انقسام بين جهتين تتقاتلان وكنا قادرين على الإصلاح بينهما، فهل يسقط ذلك عن عاتقنا لأنّ تلك البلاد خارجة عن حدودنا؟ هل يُسمّى هذا الأمر تدخّلاً في الشؤون الداخليّة للدول والشعوب فيكون مذموماً؟ ما هو الجواب الذي يقتضيه الرجوع إلى العقل والفطرة الإنسانيّة؟ وما الذي نستفيد من تعاليم الأديان والكتب السماويّة والقرآن والإنجيل وما جاء على لسان الأنبياء ﷺ في هذا المجال؟ هل يحكم العقل بسقوط المسؤوليّات والتكاليف والوظائف عن الإنسان تجاه أخيه الإنسان بسبب الحدود الجغرافيّة التي تفصل بينهما؟ هل تقبل الفطرة ذلك؟ وهل ينسجم ذلك مع تعاليم الأديان الإلهيّة؟ وهل يعفينا

ذلك من سؤال الله تعالى يوم القيامة، حينما يُسأل الإنسان عن كل صغيرة وكبيرة؟

ويدعوننا للأسف أنّ كثيرين قد ذهبوا إلى القول بهذا الأمر وتبنوا هذه الفكرة، فجعلوا تحمّل المسؤولية تجاه شعوب الدول الأخرى تدخّلًا في الشؤون الداخلية للدول، فصيروه موردًا للشجب والإدانة والاستنكار. أمّا نحن فنقول: إنّ الحدود لا تُسقط التكليف والمسؤوليّة، فلا حدود اللون ولا العنصر ولا اللغة ولا الجغرافيا، ولا حتى حدود الدين والانتماء الديني تُسقط المسؤوليّات الملقاة على عاتقنا تجاه الآخرين، سواءً أكانت هذه المسؤوليّات في البُعد الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو الأمني، أو الثقافي، أو السياسي، أو الإعلامي، أو الفكري، أو أيّ بُعد آخر، إذ إنّ هذه المسؤوليّات ناشئة من أُسس ومبادئ ومبادئ وأصول تتجاوز أمثال هذه الحدود. ونجد من اللازم هاهنا أن نشير إلى سياسة الكيل بمكيالين التي تُعتمد من قِبَل أصحاب القول المخالف. فمثلاً، على الرغم من أنّ هؤلاء يقولون أنّه لا يحقّ لأيّ دولة أن تتدخّل في شؤون الدول الأخرى، إلّا أنّنا نجد الولايات المتّحدة الأمريكيّة تتدخّل في شؤون جميع دول العالم، فلا يُحرّك أحدٌ ساكنًا ولا يعترض أحدٌ إلّا قلة من الذين وقفوا في وجه الهيمنة الأمريكيّة. ففي أيّامنا هذه، توظّف الولايات المتّحدة كافّة المؤسّسة الدوليّة للسيطرة على الدول والهيمنة عليها، بل وتدخل إلى كثيرٍ من الدول بواسطة أجهزة الاستخبارات، وأكثر من ذلك أيضًا، تنتشر القوّات الأمريكيّة

بسلحها وعتادها في كثيرٍ من مناطق العالم. فما الذي جاء بهذه القوّات إلى دولٍ تبعد عنها آلاف الكيلومترات؟ ولأَيِّ غرضٍ قدمت هذه الجيوش إلى منطقتنا؟ أليست أمريكا هي التي تطالب بعدم التدخّل في شؤون الدول الأخرى؟ فبأَيِّ حقٍّ يصل الحال بها إلى التدخّل في مسألة تعيين رئيس الحكومة والمدراء العامّين وقانون الانتخابات والتركيبة السياسيّة في لبنان مثلاً؟ ثمّ مع ذلك كلّه نجد كثيرين يتعاملون مع هذا التدخّل وكأنّه حقٌّ طبيعيّ لأمريكا، فلا يستنكرون ولا يدينون، بل على العكس تمامًا، يبحثون ويتناقشون ويتفاوضون مع الأمريكيّين في كافّة الشؤون الداخليّة للبلاد.

وليست الدول الغربيّة والأوروبيّة ببعيدةٍ عن ذلك، إذ إنّ أغلب هذه الدول تتدخّل في بلادنا وشؤوننا. والأمر عينه مع بعض الأنظمة العربيّة التي ترفع الصوت في وجه الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران قائلةً: يُمنع على إيران أن تتدخّل في الشؤون الداخليّة لدول المنطقة، حيث تتدخّل هذه الأنظمة في الشؤون الداخليّة لدول المنطقة، فتبيح ذلك وتشرّعه لنفسها ثمّ تتّهم غيرها به. بل وأكثر من ذلك أيضًا، إذ إنّ هذه الأنظمة لا تتدخّل في شؤون الدول فحسب، بل تشنّ الحروب على الشعوب أيضًا، ومثاله ما يجري على اليمن من أكثر من ستّ سنوات، من عدوان تقوده أمريكا وأنظمة خليجيّة، ومعهم تنظيمي القاعدة وداعش، وهو ما يمثّل أشدّ انتهاكٍ لسيادة الدول وشؤونها. ثمّ إذا نهض أحدٌ واتّخذ موقفًا متضامنًا مع اليمن وشعبه، وأدان الحرب والحصار

الجائر الذي يسبب الجوع والفقر والمرض، اتهموه بتجاوز الحدود والتدخل في شؤون الدول الإقليمية ومخالفة القانون وغير ذلك. هذه هي سياسة الكيل بمكيالين التي تجعل شن الحروب وسحق عظام الأطفال والنساء أمراً جائزاً، بينما الوقوف في وجه الظلم والعدوان وقول كلمة الحق تدخلاً في شؤون الدول!

ونحن في لبنان نشاهد نماذج لهذه السياسة بأمر أعيننا، فنجد جميع الدول تطالب حزب الله بعدم التدخل في شؤون الدول الإقليمية، ومع ذلك تتدخل جميع تلك الدول في شؤون لبنان بأجهزة مخابراتها وسفاراتها وإعلامها وأموالها وأدواتها، فيطالبونا بترك شيء يمارسونه هم بخلفية مختلفة وأهداف مختلفة.

في العراق، حينما ظهرت داعش وسيطرت على محافظات عراقية ومارست القتل والذبح، لم ير العالم مشكلة في أن يأتي الأمريكيون والأوروبيون إلى العراق ويؤسسوا قواعد عسكرية ويأتوا بسلاح الجو بحجة محاربة داعش التي صنعتها أمريكا نفسها، ولكن إذا ذهب أحد من لبنان لمساعدة الشعب العراقي في مواجهة داعش، فإنهم يدينونه وينكرون عليه ذلك بحجة أنه يتدخل في شؤون دول الإقليم ويتجاوز الحدود! فلا مشكلة عندهم في أن يأتي الأمريكيون ويقطعوا آلاف الكيلومترات بذريعة مساعدة الشعب العراقي في محاربة داعش وإعادة السيطرة على العراق والتدخل في كل صغيرة وكبيرة فيه، أما أن ينهض أبناء الأمة لمساعدة أهلهم وإخوانهم في العراق، والذين تربطهم بهم جميع الروابط والعلاقات

الإنسانية، الفكرية، الثقافية، القومية، الدينية والعاطفية، فهذا مُدان ومُستنكر! لماذا؟ لأنه تدخّل في شؤون الدول الأخرى. فعلى أيّ منطقٍ يستند هذا؟ وعلى أيّ أساسٍ يعتمد؟ أعلى قانون أو فكر أو عقل أو فطرة أو دين وفقه وكتاب مقدّس؟ كلّاً.

وكذلك الحال أيضًا في ما يتعلّق بمأساة الشعب الفلسطيني. فلو وقف اليوم شخصٌ وقال: أنا أقف إلى جانب الشعب الفلسطيني، ومن واجبي أن أدعّمه بالإعلام والسياسة والمواقف، أو لو قال أحدٌ: أنا أريد أن أدعّم المقاومة الفلسطينية بالمال والسلاح والإمكانات والخبرات والتجربة والتدريب، فإنّه يواجه ويُدان ويُمَنَع بحجّة كون ذلك تدخُّلاً في شؤون الدول! أمّا حينما تسخر أمريكا كلّ ما لديها للكيان الصهيوني، وتخصّص له ميزانيّة تُقدّر بمليارات الدولارات سنويّاً، وتدعّمه بأكثر الأسلحة تطوُّراً، وتقدّم له التكنولوجيا التي لا تُقدّم لأحدٍ في العالم، وتمارس الضغوط على الشعب الفلسطيني كي يستسلم ويقبل بالفتات، وتتدخّل لتفرض على بعض الأنظمة العربية أن تطبّع العلاقات مع إسرائيل وتصالحها، فإنّ ذلك كلّه يكون مسموحاً وجائزاً، بل ويستحقّ الثناء والمدح أيضاً! فأَيّ منطقٍ هو الذي يستند إليه هؤلاء؟!

في المحصلة، فإنّنا نعتقد أنّ مسؤوليّة الإنسان تجاه الغير لا تحدّها الحدود الجغرافيّة، ولا ينبغي للشعوب أن تقصّر في تحمّل مسؤوليّاتها الإنسانية والدينيّة تجاه بعضها بذريعة الحدود الجغرافيّة، فإنّ لذلك آثاراً ونتائج لا تُحمد عُقباها. فمثلاً، تنظيم داعش الذي سيطر

على ما يقارب نصف الجغرافيا السوريّة والعراقيّة، لو لم يواجه من قبل أحرار الأمة لسيطر على بقيّة سوريا والعراق، ولتمدّد إلى الدول الأخرى أيضاً. فهذا التنظيم التكفيري كان مدعوماً بالمال والسلاح من دول إقليمية وغربيّة، بل وكانت تلك الدول تشتري منه النفط المنهوب من سوريا والعراق، وتقدّم تأشيرات السفر لكافة المقاتلين التكفيريّين كي يأتوا من مختلف أصقاع العالم للالتحاق بما يُسمّى دولة داعش، فلو لم يتّحد أحرار الأمة مع الجيش العراقي والحشد الشعبي والشعب العراقي الذين تصدّوا لداعش في العراق، والجيش السوري والشعب السوري الذين تصدّوا لداعش في سوريا، لكان وضع المنطقة مختلفاً جدّاً اليوم.

• شرط القدرة لتحمل المسؤولية

حينما نتحدّث عن الشعور بالمسؤوليّة تجاه الغير فإنّنا نتحدّث عن المسؤولية ضمن حدّ القدرة والطاقة. فاليوم توجد تحديات ومخاطر وصعوبات تُحدق ببلدنا ومنطقتنا وتنعكس علينا جميعاً، ونحن نعتبر أنّ من واجب كلّ شخص ضمن حدّ قدرته وطاقته أن يتحمّل المسؤولية في مقابل هذه التحديات، من دون أن تحدّه الحدود الجغرافيّة.

فعلى سبيل المثال، حينما وقع انفجار مرفأ بيروت، ألم يقل كلّ واحد منّا نحن اللبنانيين أنّ من واجب العالم كلّهُ أن يساعدنا ويلملم معنا الجراح والدمار، كلّ ضمن حدّ قدرته؟ وحينما اعتدى الكيان الصهيوني على لبنان، ألم ير الشعب اللبناني أنّ من واجب الدول

والجيوش العربيّة والمجتمع الدولي أن يقف إلى جانبنا ويساعدنا بما يقدر عليه؟ أليست هذه المسؤوليةّ العابرة للحدود هي ممّا يُدرّكه كلّ واحد ممّا بعقله وروحه؟

هنا قد يقول قائل: هل هذا الكلام يعني أنّه أينما وُجدت جبهات وحروب ومجاعات ومصائب في العالم، فمن واجبنا الذهاب إلى كلّ هذه الجبهات والبلدان لتقديم المساعدة للشعوب؟ هنا يأتي شرط القدرة الذي ذكرناه أعلاه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أُكْتَسَبَتْ﴾⁽¹⁾. فيوم القيامة لن يسألنا الله عن شيءٍ لم نكن قادرين عليه، ولكن سوف يسألنا عن كلّ ما كان واقعاً تحت قدرتنا.

فعلى سبيل المثال، إذا شُنَّ عدوان على شعب مظلوم، كالذي حصل في اليمن مثلاً، أو وقع ظلم على شعب مُستضعف، كالذي حصل حينما اتّخذ ترامب قرار نقل السفارة الأمريكيّة من تل أبيب إلى القدس المحتلّة، قد يقول أحدٌ ما: نحن لسنا قادرين على شُنّ حرب إقليمية لمنع ذلك، فلا مسؤوليّة لنا في مقابل هذا الأمر. ونحن نقول: نعم، نحن لسنا قادرين على شُنّ حرب إقليمية، ولكن ألسنا قادرين على الاستنكار والتنديد وإصدار بيانات الشجب والاعتراض؟ ألسنا قادرين على التظاهر وتنظيم المسيرات؟ ألسنا قادرين على اتّخاذ المواقف وتقديم الدعم الإعلامي؟ كلّ هذا يقع في حدود قدرتنا، فيدخل في إطار مسؤوليّاتنا. ففي مثل

(1) سورة البقرة، الآية 286.

هذه الحالة، لا ينبغي الاكتفاء بالاستنكار القلبي، لأنَّ حدود قدرتنا أوسع من ذلك، فاليوم توجد وسائل إعلام ومواقع تواصل اجتماعي، وتوجد منابر وثورة إعلام واتّصالات، ويمكن لنا أن نوصل صوتنا إلى العالم بأسره، فلمَ السكوت والاكتفاء بالاستنكار القلبي؟ لا شكَّ بأننا سوف نُسأل عن هذا يوم القيامة.

الله سبحانه وتعالى يطالبنا بمقدار قدرتنا، وبما نطيعه ونستطيعه، ولا يكلفنا بما لا نطيع ولا نستطيع. وبالتالي، فإنَّ كثيرًا من الساحات والجهات لسنا مسؤولين عن الحضور والتواجد فيها لأنَّ ذلك خارج عن حدِّ قدرتنا، ولسنا مسؤولين، وكثيرًا من شعوب العالم لسنا مسؤولين عن مساعدتهم، لأننا غير قادرين على ذلك، ولكن بمجرد أن تتوفَّر القدرة على ذلك - بأيِّ مقدارٍ كانت - فحينئذٍ يصبح من واجبنا أن نبادر للمساعدة وتحمل المسؤولية، ولا ينبغي عندها أن تكون حدود الجغرافيا واللغة والعرق مانعًا أو حائلًا أمام ذلك. ولنضرب مثالاً يرتبط بمنطقتنا. في الصومال يواجه الشعب مجاعةً عظيمة، وكذلك توجد في اليمن ظروف صعبة من جوع وفقرٍ ومرضى وما شابه ذلك. فلو أمكن لدولة أو جماعة أو أفرادٍ من ذوي الإمكانيات الماليّة الضخمة، كبعض الدول الخليجيّة، أن يقدّموا المساعدة لهذه الشعوب، فإنَّ ذلك يكون واجبًا عليهم بلا شكَّ، بل وسوف يسألهم الله تعالى عن ذلك يوم القيامة ويحاسبهم على تقصيرهم في تحمّل المسؤولية، لأنهم قادرون على مساعدة أهل الصومال واليمن وفلسطين وسائر الشعوب المحرومة في المنطقة،

ولكنهم لم يفعلوا، بل فضلوا جمع الأموال وتكديس ملايين الدولارات في المصارف الأمريكية والأوروبية، مع علمهم بوجود شعوب محاصرة وجائعة في منطقتنا!

وبناءً عليه، فإنَّ القادر يجب عليه أن يساعد ويتحمَّل المسؤولية بحسب قدرته، أمَّا غير القادر على المساعدة فيجب عليه حتَّ القادرين على ذلك، وإن كان عاجزاً عن الحثِّ أيضاً، فلا أقلَّ من التألم القلبي والدعاء، فهو أضعف الإيمان. المهمُّ ألا يكون المرء متجاهلاً وغير مباليِّ بأمور الآخرين، بل يتحمَّل المسؤولية بحسب قدرته. وهذا شبيه بما يُذكر في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّ الإنسان إذا كان قادراً على تغيير المنكر بلسانه أو يده، فعليه ذلك، وإن لم يكن قادراً على ذلك فلا أقلَّ من الإنكار القلبي، فهو أضعف الإيمان. فلو كان الإنسان قادراً على رفع الصوت والمطالبة برفع الظلم، فعليه ذلك، ولو كان قادراً على اتِّخاذ المواقف الداعمة والمساندة، فعليه ذلك، ولو كان قادراً على تقديم المال، فعليه ذلك، وأخيراً، لو لم يكن قادراً على شيءٍ من هذا، وكان قادراً فقط على الدعاء والطلب من الله تعالى، فسيُتوجَّب عليه ذلك أيضاً. إذن، المسؤولية تبقى ثابتةً على عاتق الإنسان تجاه غيره، ولو على مستوى القلب، ولا أقلَّ من التألم على حال الآخرين. أليس هذا معنى الجسد الواحد الوارد في حديث رسول الله ﷺ في وصف علاقة المؤمنين ببعضهم، حيث قال ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى

مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى»⁽¹⁾، فأعضاء
الجسد الواحد تتألم لألم بعضها، وتحزن لحزن بعضها، وتفرح
لفرح بعضها، وهذه مسؤولية كل واحدٍ منّا تجاه الآخرين.

ثم لا بدّ، في ما يتعلّق بشرط القدرة، من الالتفات إلى مسألة
في غاية الأهميّة، وهي مسألة التوازن والاعتدال في التعامل مع
القدرة. فكلّ إنسانٍ مهما بلغ من القوّة، فإنّه في نهاية المطاف ذو
قدرة محدودة، ولذلك يضطرّ إلى تنظيم أولويّاته وقياس المهمّ
والأهمّ، فيختار الأهمّ على حساب المهمّ، ويختار المهمّ على حساب
غير المهمّ، وهنا تقع مسؤولية الإدارة والقيادة والتشخيص. ولكن
للأسف فإنّ كثيرًا من الناس يلازمون حدّي الإفراط والتفريط
في هذا المجال. فبعضهم يلزم حدّ التفريط فتراه يقول: إنّنا في
لبنان لا علاقة لنا بما يجري في العالم، ولا ينبغي لنا أن نتدخّل
أو نتكلّم أو نتخذ موقفًا أو نصدر بيانًا حول ما يحدث خارج
لبنان. وآخرون يبلغون حدّ الإفراط فتجدهم يُصدرون تكاليفَ
لا تُطاق وأوامر خارجةً عن القدرة، ويكلّفون أنفسهم وغيرهم
بما لم يُكلّف به الله سبحانه وتعالى، فيطالبون بتحرير فلسطين
ومحاربة التكفيريّين والتواجد في كلّ الجبهات في آنٍ واحدٍ وتقديماً
العون لكلّ مستضعف أينما وُجد في العالم، من دون أن يعيروا
اهتمامًا بمسألة القدرة وحدودها. فنحن كغيرنا من الجماعات
البشريّة، لدينا قدرات بشريّة وماديّة محدودة، فلا يُعقل أن نُكلّف

(1) المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمال، ج 1، ص 149.

بتكاليف لا حدود لها، ولا أن يُتوقَّع مِنَّا توقُّعات لا حدود لها، ولا أن نطالبَ بأمورٍ لا حدود لها. ولكن في المقابل، لا يصحَّ أن نحدِّ أنفسنا بالحدود الجغرافيَّة ولا نبالي تجاه ما يحدث خارج هذه الحدود، فإنَّ هذا تنصُّل من المسؤوليَّة. بل الصحيح هو ملازمة الاعتدال والخروج عن حدِّي الإفراط والتفريط، ومقتضى ذلك أن نصغي لما تمليه علينا عقولنا وفطرتنا وأخلاقنا وقيمنا وإنسانيَّتنا، وما يأمرنا به ديننا وربُّنا، وهو أنَّنا نحمل مسؤوليَّةً تجاه أنفسنا وشعبنا وسائر الشعوب، وإن كانت خارجةً عن حدودنا، بل وفي أيِّ مكانٍ من أصقاع العالم، إلَّا أنَّ هذه المسؤوليَّة مقيَّدة بحدود القدرة والإمكانيَّات المتوفِّرة لدينا، ومع عدم توفُّر القدرة على القيام بأمرٍ ما، فإنَّه يكون خارجًا عن مسؤوليَّتنا، ولا نُسأل عنه يوم القيامة. وفي المقابل، فإنَّ كلَّ أمرٍ يكون داخلًا في حدود قدرتنا، فإنَّه يكون داخلًا في مسؤوليَّتنا، وسوف نُسأل عنه يوم القيامة.

• تشخيص القدرة

هذا الكلام يفتح لنا الباب للحديث عن مسألةٍ حسَّاسةٍ للغاية، وهي مسألة الدقَّة في تشخيص القدرة. فقد يكذب الإنسان على غيره ويقول لهم: إنني لم أفعل شيئًا حيال الحادثة الفلانيَّة لأني غير قادرٍ على ذلك، إلَّا أنَّه لا يستطيع أن يكذب على نفسه ولا على الله سبحانه وتعالى. فنحن قد نُسأل يوم القيامة عن سبب تقاعسنا في تحمُّل مسؤوليَّتنا إزاء موضوع معيَّن، فإن أجبنا: إنَّنا لم نكن قادرين على فعل شيء، فقد يقول لنا الله تعالى: بل

كنتم قادرين، ولكنكم ضعفتم وتخاذلتم! فيُحاسَبنا على ذلك. فالمسؤولية الشرعية والأخلاقية والإنسانية تقضي بأن يشخص الإنسان قدرته بدقة، وأن يحدّد حجم القدرة المتوقّرة لديه، لكي يعمل على أساسها، ثمّ حينما يريد محاسبة نفسه وتقييم أدائه فإنّه يفعل ذلك ملاحظاً حجم قدرته. وهذا بالطبع ينطبق على الأفراد والجماعات والدول والأنظمة على حدّ سواء.

فإذا أردنا أن نقيّم أداء دولة معيّنة وتحملها للمسؤولية تجاه قضايا الأمة، فإننا لا بدّ أن ننظر إلى حجم قدرتها قبل أن نحكم عليها، لئلا يكون حكمنا غير واقعيّ. ففي بعض الأحيان قد نطالب جهةً معيّنة بأكثر ممّا تطيق، وننتظر منها أكثر ممّا تقدر عليه، فنُخطئ في الحكم عليها. فعلى سبيل المثال، منذ أن انتصرت الجمهورية الإسلامية في إيران، قدّمت نفسها بقيادة الإمام الخميني قدس سرّه بوصفها دولة الإسلام والمستضعفين، فكان من آثار ذلك أن تتوجّه إليها أنظار جميع المسلمين في العالم، بل وكلّ الشعوب المستضعفة في العالم، وتنتظر منها العون والمساعدة والمساندة على كافّة الأصعدة والساحات. وهذا في حدّ ذاته يُعتبر أمراً صحيحاً، ولكن ممّا ينبغي الالتفات إليه أنّنا حينما نطالب الجمهورية الإسلامية بأمرٍ ما، فيجب أن نأخذ بعين الاعتبار قدراتها وظروفها وإمكاناتها، فتكون مطالبتنا على ضوء هذه القدرات والظروف والإمكانات. وكذلك الحال حينما نتطلّع إلى أيّ جماعة أو دولة أو شعب أو حركة أو حزب أو شخصيّة ونتوقّع منها المساندة والدعم.

إذن، من أهمّ العوامل التي ينبغي مراعاتها في تحمّل المسؤولية هو تشخيص القدرة المتوقّرة لدينا. وهذه القدرة في بعض الأحيان قد تتجلّى في صورة الشهادة في سبيل الله، وذلك حينما تكون الشهادة طريقاً لتحقيق الهدف السامي وبلوغ النصر، فيُصنع الاقتدار بالقدرة على بلوغ الشهادة، وهذا أحد معاني انتصار الدم على السيف، وهو ما شهدناه في حركة الإمام الحسين (عليه السلام) في وجه يزيد.

الإمام الحسين (عليه السلام) وتحمل المسؤولية

في ما يتعلّق بثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، قد يقول قائل إنّ الحسين (عليه السلام) لم يكن يمتلك القدرة على مواجهة يزيد ونظامه ومشروعه، فعلى أيّ أساس نهض وواجه مع قلة من أنصاره، ممّا أدّى إلى استشهاده؟

ونحن نجيب على ذلك مع غصّ النظر عن مسألة علم الإمام وما نعتقده نحن الشيعة في هذا البحث، فنقول: إنّنا إذا لاحظنا ظروف تلك المرحلة ومعطياتها، يمكن لنا بوضوح أن نقول إنّ الحسين (عليه السلام) كان قادراً على مواجهة يزيد. فالحسين (عليه السلام) وصلته من العراق بيعة عشرات الآلاف من الكوفيّين، كما وأرسل إليهم ابن عمّه مسلم بن عقيل، والذي بدوره أيّد هذه البيعة. ومن هنا، كان لدى الإمام الحسين (عليه السلام) تقديران:

التقدير الأول: أن يقصد الكوفة وفي الكوفيون بيعتهم، فتسير الأمور في مصلحة هذه الثورة. إذ إنَّ العراق كان وما يزال إلى يومنا هذا قلب العالم الإسلامي ومركز شيعة أهل البيت عليه السلام، وفي حال ثبات الناس على بيعتهم، فإنَّ هذا سيعني أنَّ للحسين عليه السلام قاعدةً شعبيةً كبيرةً يمكن له أن ينطلق منها لمواجهة يزيد والقضاء على سلطانه ومشروعه الذي يستهدف الإسلام والأمة الإسلامية.

التقدير الثاني: أن يصل إلى الكوفة ثم لا يفي الكوفيون ببيعتهم، وحينئذٍ لا بدَّ من مواجهة يزيد والقضاء على مشروعه بطريقة أخرى، تكلفتها أن يضحي بنفسه وأصحابه وأهل بيته.

فالحسين عليه السلام كان أمام تقديرين وفرضيتين، وعلى كلتا الفرضيتين كان سوف يقضي على نظام يزيد ومشروعه، غاية الأمر أنَّ الأسلوب سيختلف، وهذا ممَّا ينبغي الالتفات إليه جيِّدًا. فلو وفي الكوفيون ببيعتهم، لكانت النتيجة هي القضاء على مشروع يزيد بواسطة الثورة المعتمدة على القاعدة الشعبية، ولو لم يفِ الكوفيون ببيعتهم، لكانت النتيجة أيضًا هي القضاء على مشروع يزيد، ولكن بواسطة الشهادة والتضحية. إذن، لم يقم الحسين عليه السلام بما هو خارج عن قدرته، بل خرج في وجه يزيد وهو قادر على مواجهته بناءً على كلتا الفرضيتين والتقديرين.

بالتالي، وبناءً على الفرضية الثانية، كان واضحًا بالنسبة للحسين عليه السلام أنَّ رفض البيعة ليزيد وعبيد الله بن زياد هو ذهاب إلى مواجهة دامية ستؤدِّي إلى وقوع تلك الشهادة العظيمة

والأحداث الأليمة، ولكن كان معلومًا بالنسبة إليه أيضًا أنَّ هذه الشهادة بملاحظة ظروف تلك المرحلة التي كانت تمرُّ فيها الأمة سوف تفضي إلى فضح يزيد وكشف مشروعه، وسوف ينتج عنها استنهاض الأمة لإسقاط هذا النظام والقضاء على هذا المشروع والحفاظ على الإسلام، وهو ما حصل فعلًا، إذ إنَّ جميع التداعيات التي حصلت بعد واقعة كربلاء قد أكّدت ذلك. بل أكثر من ذلك أيضًا، فيمكن أن يقال إنَّ العام 61 للهجرة شكّل مرحلة تأسيسية في الأمة الإسلامية، إذ فيه أسّس الحسين عليه السلام نموذجًا لجميع الأجيال اللاحقة حتّى قيام الساعة، وذلك من خلال شهادته العظيمة، وشهادة كلّ من معه من أهل بيته وأصحابه، وموقف السيّد زينب عليها السلام والسبايا من العترة الطاهرة، وكلّ ما جرى في كربلاء وبعدها. كلّ هذه الأحداث أسّست لروح وثقافة وقاعدة وأرضية وبيئة مجاهدة مؤمنة مضحية ومستمرّة حتّى قيام الساعة، ممّا شكّل ضمانًا لبقاء الإسلام ومواجهة كلّ عدوان على هذه الأمة على مرّ التاريخ.

وبناءً على ما تقدّم نقول إنَّ كلّ ما قام به الإمام الحسين عليه السلام كان واقعًا ضمن قدرته، فمن يكون هدفه بعظمة حفظ أصل الإسلام وبقائه، لن يكون عاجزًا عن النهوض والقتال حتّى الشهادة من أجل هذا الهدف العظيم. ومن هنا نتعلّم من الحسين عليه السلام درسًا في تحمّل المسؤولية، وهو أن لا نتوانى في أداء تكليفنا ومسؤوليّتنا مهما بلغت التضحيات والآلام.

تَحْمَلُ الْمَسْئُولِيَّةَ مِنْهُج نَبَوِي

درسُ تَحْمَلُ الْمَسْئُولِيَّةَ هذا نتعلّمه من رسول الله ﷺ وجميع الأنبياء الذين سبقوه. نتعلّم منهم أن نتحمّل مسؤوليتنا بحبّ، أن نساعد الناس لأننا نحبّهم، لأنّهم عباد الله وخلقهم، ولأنّهم بنو آدم الذين كرّمهم الله وفضّلهم على جميع الخلق. ولذلك كان رسول الله ﷺ يحمل همّ إخراج الناس - كلّ الناس - من الظلمات إلى النور، وكان يحمل هذه المسؤولية بحبّ، ولم يكن ينظر لدعوته على أنّه مجرد واجب وتكليف يقوم به إلزاماً، بل كان يتلهّف كي يخرج حتّى الذين آذوه وقتلوا أصحابه من ظلمات عبادة الأوثان إلى نور عبادة الله الواحد، ومن ظلمات الأخلاق السيّئة والردائل إلى نور الأخلاق الحسنة والفضائل، وكان يتحمّل في سبيل ذلك كافّة أشكال العناء والعذاب والمعاناة والآلام، حتّى قال ﷺ: «مَا أُوذِيَ نَبِيٍّ مِثْلَ مَا أُوذِيَْتُ»⁽¹⁾، كلّ ذلك لإخراج هؤلاء الذين آذوه من الظلمات إلى النور. بل حتّى حينما كان يحاربهم، لم يكن يحاربهم بخلفيّة انتقام، بل بخلفيّة إنقاذٍ ومن موقع اللهفة والشفقة والحب، حتّى كادت تذهب نفسه عليهم حسرات⁽²⁾.

وكذلك الحسين عليه السلام، لم يخرج إلّا من موقع الحب واللهفة على الأمّة، إذ كان يريد إنقاذها وإخراجها من الظلمات إلى النور، وألاّ

(1) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمّة في معرفة الأمّة، ج 3، ص 346.

(2) يقول الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ (سورة فاطر، الآية 8).

يسمح ليزيد ومن معه من أبناء الطلقاء بإعادة الأمة إلى الجاهلية فيخسر الناس دنياهم وآخرتهم.

وهذا هو الدرس الذي ينبغي أن نتعلّمه من كربلاء وعاشوراء، وهو أننا ينبغي ألا نكلّ ولا نملّ ولا نتعب على طريق تحمّل المسؤولية مهما بلغت التضحيات، بل نبقى ثابتين على هذا الطريق بحبّ ولهفة. ولنا في ذلك نماذج وأمثلة من شخصيات عاصرناها في زماننا هذا، ومنها سماحة آية الله الشيخ محمّد علي التسخيري (رض)⁽¹⁾، وهو الذي قضى كلّ عمره مضحّيًا في هذه المسيرة. وقد كنّا نلتقيه في السنوات الأخيرة، فنجدّه على الرغم من كبر سنّه ومرضه وسوء حالته الصحيّة لا يكلّ ولا يملّ في تحمّل مسؤوليّته. لم يكن الشيخ (رض) يألو جهدًا في سبيل خدمة الإسلام وتعزيز أواصر الوحدة الإسلاميّة والتقريب بين المسلمين ومساندة المقاومة ومحورها. وقد كان بإمكان رجلٍ يمثل هذا السنّ الكبير والحالة الصحيّة السيّئة أن يقول: لقد أصبحت عاجزًا حتّى عن النطق والحركة، فلا تقع على عاتقي أيّ مسؤوليّة، وأنا معذور أمام الله، ولكنّه لم يفعل ذلك، ولم يمنعه مرضٌ ولا تعبٌ من تحمّل المسؤولية حتّى الرمق الأخير. هذه هي المدرسة التي ننتمي إليها، والتي يريد منّا الله سبحانه وتعالى أن نحمل فكرها وثقافتها في عقولنا وقلوبنا وأفعالنا، فلا

(1) ذكر سماحته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ آية الله الشيخ محمّد علي التسخيري (رض) لمصادفة أيّام ارتحاله لأيّام محرّم من العام 1440 هـ. والشيخ (رض) كان الأمين العام السابق للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة، ومن أهمّ الشخصيات الإسلاميّة الداعية للوحدة الإسلاميّة.

نتردّد كأفراد وجماعات وتيّارات وحركات في تحمّل مسؤوليّتنا، ولا نسمح لشيءٍ أو أحدٍ بأن يعيقنا عن تحمّلها، إذ سوف نُسأل عن ذلك يوم القيامة، يوم نُسأل عن كلّ صغيرة وكبيرة. ففي الدنيا قد لا يُساءل المرء ولا يستجوبه أحد، وقد يُساءل فيكذب ويخفي الحقائق ويتوسّل بشهود الزور، أمّا يوم القيامة فلا شيء من هذا يحصل أبداً، إذ لا مفرّ هناك من المُساءلة، ولا مهرب من الجواب، ولا مجال للكذب وإخفاء الحقائق: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁾.

هذا هو طريق كربلاء، ونحن من وحي الانتماء إلى هذا الطريق ينبغي أن نتحمّل المسؤولية ولا نتخلّى عنها، ولكن كلّ ذلك مع مراعاة القدرات والأولويات ومراعاة المصالح الكبرى، فننظر في المهم والأهم، وإلى ما لدينا من إمكانيات وقدرات، ونتخذ المواقف بما يتناسب مع ذلك.

ولذلك قلنا في ما تقدّم إنّه لا يُعقل أن نتواجد في جميع الجبهات والساحات، وأن نساند المظلومين في كلّ مكان، لأنّ ذلك تابع لما نمتلك من قدرة وأولويات. ومن هذه الأولويات بطبيعة الحال ما يتعلّق بوطننا وشعبنا وشركائنا في الوطن والمصالح الوطنيّة الكبرى. ولكن هنا ينبغي عدم الوقوع في الخطأ في التشخيص، ففي كثيرٍ من الأحيان يحسب البعض مسألةً معيّنة مخالفةً للمصالح الوطنيّة، في حين أنّها مصلحة وطنيّة. فمثلاً، مساندة الشعب

(1) سورة النور، الآية 24.

الفلسطيني لجعله مقتدرًا وقويًا وقادرًا على استعادة حقوقه ولمّ شتاته وعودة مهجره ولاجئه إلى فلسطين المحتلة، أليست مصلحة وطنية لبنانية؟ ومساعدة الشعب الفلسطيني في مقاومة إسرائيل وإضعافها وإشغالها، أليست مصلحة وطنية لبنانية؟ لا شك في أنّ دعم الشعب الفلسطيني ومساعدته يخدم المصلحة الوطنية. وكذلك الحال في مساندة سوريا في قتالها للجماعات الإرهابية التكفيرية التي أرادت تدمير كلّ مظاهر الحضارة والدين والثقافة والتاريخ، والقضاء على الحجر والبشر، والتي لا تتكلم سوى بلغة القتل والذبح! أليس من المصلحة الوطنية قتال هذه الجماعات منعًا من وصولها إلى لبنان؟ إذًا، لا شك في أنّ المصلحة الوطنية تمثّل أولوية في تحمّل المسؤولية، ولكن ينبغي الحذر من الوقوع في الاشتباه والخطأ في تشخيص المصالح الوطنية.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفّقنا لتحمل مسؤوليتنا والاستمرار في أداء تكليفنا تجاه أهلنا وشعبنا، وكما قدّمنا تضحيات كبرى على طول العقود الماضية، نسأل الله أن يوفّقنا لمواصلة الطريق بهذه الروح والفكر والعقلية والثقافة والحب والعشق والاستعداد لتقديم التضحيات مهما كُثرت.

الفصل الثالث

الإمام الحسن عليه السلام في زمن جدّه رسول الله ﷺ

الليلة الخامسة من شهر محرّم 1442 هـ
(آب 2020 م)



في سلسلة من المحاضرات السابقة⁽¹⁾، تحدّثنا عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام وشخصيّته والمهام والأدوار العظيمة التي أدّاها بعد واقعة كربلاء إلى حين شهادته. ونودّ في هذه المحاضرات أن نتحدّث عن الإمام الحسن بن علي المجتبي عليه السلام. إذ لا يمكن أن نتحدّث عن واقعة كربلاء والإمام الحسين عليه السلام من دون الحديث عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ودوره العظيم في حفظ الإسلام والأمة الإسلاميّة، وهو الهدف نفسه الذي قام من أجله الإمام الحسين عليه السلام وحدثت من أجله واقعة كربلاء.

في هذه المحاضرة التي تمثّل الجزء الأوّل من كلامنا حول الإمام الحسن عليه السلام، سوف يدور الكلام حول الإمام عليه السلام في زمان جدّه رسول الله ﷺ، وذلك من أجل التعريف بشخصيّة هذا الإمام العظيم ومنزلته وفضله ومقامه وتربيته وإعداده من قبل رسول الله ﷺ. وسوف يكون حديثنا عن تلك المرحلة من التاريخ الإسلامي بالاستناد إلى ما رُوي عن رسول الله ﷺ من قولٍ وفعلٍ، وإلى الآيات القرآنيّة ذات الصلة، فكلّنا يعلم أنّ كتاب الله حجة

(1) والتي أُلقيت في شهر محرم 1441 هـ.

علينا جميعاً، وكذلك رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله وسيرته
وسنّنه.

ومن خلال دراسة هذه المرحلة الزمنية، والتي تمتد من السنة
الثالثة للهجرة - أي سنة ولادة الإمام الحسن عليه السلام - إلى السنة
العاشرة للهجرة - أي سنة وفاة رسول الله ﷺ، والتي لازم فيها
الإمام الحسن عليه السلام رسول الله ﷺ سبع سنين، ولازمه فيها الإمام
الحسين عليه السلام ست سنين، نجد اقتراناً دائماً بين الإمامين الحسن
والحسين في حديث رسول الله ﷺ، وكذلك في الأحداث المنقولة
عن علاقتهما برسول الله ﷺ، فلا يُذكر الحسن عليه السلام إلا ومعه
الحسين عليه السلام، ولا يُذكر الحسين عليه السلام إلا ومعه الحسن عليه السلام.
وكذلك كان حالهما بعد وفاة رسول الله ﷺ، حيث بقيا إلى
جانب بعضهما حتى شهادة الإمام الحسن عليه السلام، فبقي الإمام
الحسين عليه السلام وحده من دون أخيه الحسن عليه السلام، وإلا فهما كانا
معاً منذ الولادة والطفولة، ثم كبرا وجاهدا معاً، ولم تُفرّق بينهما
سوى المرحلة الممتدة بين العامّين 50 و61 للهجرة.

هدفان مركزيان للحركة النبوية

كمقدمة للحديث عن الإمام الحسن عليه السلام في زمن جدّه ﷺ،
ينبغي أن نلتفت ونندقق في هدف الحركة النبوية، ونعرف في أيّ
إطارٍ كانت حركة النبي ﷺ وفعله وقوله. وفي هذا المجال نقول:

لقد كان لرسول الله ﷺ هدفان مركزيان وأساسيان في حركته النبوية:

الهدف الأول: نشر عقيدة التوحيد والدين الإلهي ورسالة الإسلام. فعلى الرغم من أن رسول الله ﷺ قد أمضى حياته كلها يدعو الناس إلى الله وكتابه ودينه وتوحيده، إلا أن هدفه لم يكن نشر الإسلام والتوحيد في زمان حياته فقط، بل كان سعيه منصباً على أن تبقى هذه الرسالة حيّة إلى يوم القيامة، وأن يصل هذا الدين إلى مسامع كلّ الأجيال الآتية وإلى عقول وقلوب جميع البشر حتى قيام الساعة. والسبب في ذلك هو أن هذا الدين الإلهي هو الدين الخاتم الذي لن يأتي دين بعده يُكمله أو ينسخه أو يُعَدّل فيه كما كان الحال في الأديان السابقة. فحلال محمد ﷺ حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة. إذن، المطلوب لهذا الدين وهذه الرسالة أن تستمرّ وتُحفظ بعد وفاة رسول الله ﷺ، وأن تبقى حيّة قويّة وفاعلة، وأن يصل وصوتها ودليلها ومنطقها وحجّتها وكلماتها وآياتها إلى كلّ الآذان، وينفذ إلى كلّ العقول والقلوب على مدى الأجيال إلى قيام الساعة. إلا أن هذا الأمر يحتاج إلى ضمانات، ويحتاج إلى من يحمل هذه الرسالة والآيات وهذا العلم والفكر، ويتشرّب هذه المعارف كي يوصلها إلى سائر الأمم وينشرها بين البشر، ويحتاج إلى من يحفظ هذا الدين ويدافع عنه ويحول دون ضياعه ونسيانه وتزويره وتحريفه والقضاء عليه بوصفه رسالةً وفكرًا وثقافةً وقيماً.

الهدف الثاني: الحفاظ على الأمة وضمان استمرارها. فإنّ رسول الله ﷺ قد أخرج مجموعةً من الناس من الظلمات إلى النور وأسّس لها أمةً جديدةً بدأت بالانتساع والتمدّد مع مرور الزمن. وقد كان رسول الله ﷺ يحمل همّ مصير هذه الأمة بعد وفاته، ويحمل همّ دنياها وآخرتها، ويحمل همّ الحفاظ عليها وعلى كرامتها وحرّيتها وسعادتها والتزامها بالإسلام واتباعها للدين الحنيف. وهذا الأمر أيضًا يحتاج إلى ضمانات، إذ لا يمكن لأمة أن تستمرّ من دون توقّر عوامل استمرارها وبقائها وحفظها.

الحسن والحسين ﷺ في المشروع النبوي

من أجل ضمان تحقّق هذين الهدفين المركزيّين، قام رسول الله ﷺ بمجموعة من الخطوات والإجراءات في حياته الشريفة، وعمل على بناء مجموعة من التحصينات التي تضمن بقاء الدين والأمة الإسلاميّة. ومن جملة هذه الأمور ما يتعلّق بتربية الإمامين الحسن والحسين ﷺ. فنحن هاهنا لا نتحدّث عن مجرد علاقة بين أب وولدين أو جدّ وسبطين، على الرغم من عظمة هذه العلاقة وعظمة هذا الأب والجد وهذين الولدين والسبطين، إذ الكلام ليس عن مجرد علاقة عاطفيّة تربط رسول الله ﷺ بولديه وسبطيه الحسن والحسين ﷺ، وإنّما نتحدّث عن علاقة لا يمكن فهمها إلّا في سياق الهدفين المركزيّين للحركة النبويّة والمشروع النبوي، وكلّ

الشواهد التي سوف نأتي على ذكرها تؤكّد هذا المعنى، فالأسلوب الذي كان يتعامل به رسول الله ﷺ مع الحسن والحسين ﷺ، والطريقة التي كان يكلّمهما بها، والكيفيّة التي كان يتحدّث بها عنهما، كلّ ذلك يشهد على وجود برنامج نبوي يتعلّق بالحسن والحسين ﷺ.

وبالحديث عن هذا البرنامج النبوي المتعلّق بالحسن والحسين ﷺ، يمكن أن نذكر مجموعة أهدافٍ كان يبتغيها رسول الله ﷺ من هذا البرنامج:

أولاً: إعدادهما وتربيتهما وتنشئتهما وصنعهما على عينه وبيده، كي يتمكّن من النهوض بالمسؤوليّات والأدوار الملقاة على عاتقهما في المستقبل القريب. فهذا البرنامج كان جزءاً من عمليّة صناعة وتربية وإعداد وتنشئة لهذين الإمامين العظيمين لما ينتظره منهما رسول الله ﷺ من مهام ومسؤوليّات تتعلّق بما ذكرناه من أهداف الحركة النبويّة.

ثانياً: تعريف الأمّة بهما وبفضلهما ومكانتهما ومقامهما ودرجتتهما ومنزلتهما عند الله وعند رسول الله ﷺ، وما يحملان من لياقات وأوصاف.

ثالثاً: تعريف المسلمين بمسؤوليّتهم تجاه هذين الإمامين، بل ليس تعريفهم بالمسؤوليّة فحسب، بل الأمر بحبّهما ومودّتهما، والأمر بتحمّل هذه المسؤولية المتمثّلة بنصرتهم والوقوف معهما وعدم خذلانهما والتخلّي عنهما.

ولادة الإمام الحسن عليه السلام

والآن ندخل للحديث عن الإمام الحسن عليه السلام، ونستهل ذلك بالتعريف بهذا الإمام العظيم.

أمّا أبوه فهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأمّا أمّه فهي السيّدة فاطمة الزهراء بنت محمّد عليه السلام. وُلد في المدينة المنوّرة في 15 شهر رمضان من العام 3 هـ بناءً على القول المشهور، واستُشهد في 7 صفر من العام 50 هـ وقيل في 28 صفر من ذلك العام وعمره الشريف 47 عامًا.

ومنذ اللحظات الأولى لولادة الإمام الحسن عليه السلام، تلقّته يد الرعاية والاهتمام المباشر من قِبَل رسول الله ﷺ. فهو السبط الأوّل في بيت النبوة والمولود الذي سيُدخل البهجة إلى هذا البيت وأهله. ولنا أن نتخيّل ساعة ولادة الإمام الحسن عليه السلام ووصول خبر الولادة إلى النبي ﷺ والبهجة التي ملأت قلبه الشريف وهو الذي كان يعيش آلام الدعوة ومعاناتها. وقد تجسّدت هذه البهجة التي سكنت بيت الرسول ﷺ بالعناية والرعاية المباشرة لهذا المولود من يوم ولادته وحتى يومه السابع. إذ من المعلوم بالنسبة لنا وجود مستحبات ينبغي أن يقوم بها الأهل حينما يُرزقون بمولود جديد، وقد قام رسول الله ﷺ بمجموعة من هذه المستحبات بنفسه حينما رُزق البيت النبوي بالإمام الحسن عليه السلام، فأدّن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى وحَنكه، وكذلك الحال بالنسبة إلى سائر المستحبات الأخرى التي ينبغي فعلها من اليوم الأوّل

وحتى السابع من الولادة، فهي إمّا قد فعلها رسول الله ﷺ بنفسه أو أشرف على فعلها من قبل علي وفاطمة ﷺ، حيث تفيد بعض الروايات أنّ رسول الله ﷺ قد باشر هذه المستحبات بنفسه، وتفيد روايات أخرى أنّه ﷺ باشر بعضها وأمر علياً وفاطمة ﷺ ببعضها الآخر.

من هذه المستحبات خلق شعر المولود في اليوم السابع، والتصدّق بمقدار وزنه فضّةً، وذبح العقيقة في اليوم السابع وتوزيعها على الفقراء والمساكين، وغيرها من المستحبات المعروفة، وكلها أشرف على فعلها رسول الله ﷺ أو فعلها بنفسه، وصوّلاً إلى اختيار اسم المولود الجديد، فإنّ علياً وفاطمة ﷺ ما كانا ليسبقا رسول الله ﷺ في تسمية أولادهما على الإطلاق، وهذا الأمر بدأ مع الحسن ﷺ حيث انتظروا أن يسمّيه رسول الله ﷺ. وقد ورد في بعض الروايات أنّ رسول الله ﷺ هو الذي أطلق عليه اسم الحسن، وورد في روايات أخرى أنّ هذا الاسم أهداه جبرائيل لرسول الله ﷺ ليسمّي به سبطه الأوّل. وهذا بعينه ما حصل مع الحسين ﷺ، كما ورد في بعض الروايات أنّ رسول الله ﷺ اشتق اسم الحسين من الحسن وسمّاه به. وكذلك حينما وُلدت زينب ﷺ، فقد اختار رسول الله ﷺ اسمها وسمّاه زينب. فجميع الأسماء التي سُمّي بها أولاد علي وفاطمة ﷺ كان اختيارها من قبل رسول الله ﷺ.

حُبُّ رَسولِ اللهِ ﷺ لِلْحَسَنِينِ ﷺ

بعد مدّة قصيرة من ولادة الإمام الحسن ﷺ وُلد الإمام الحسين ﷺ. والمشهور في الروايات والكتب التاريخية أنّ مدّة حمل الإمام الحسين ﷺ كانت ستّة أشهر فقط، وهذا من الأمور التي اختصّ بها الإمام الحسين ﷺ، حيث كانت مدّة حملهِ أقل من مدّة الحمل الطبيعيّة، ولذلك يذهب البعض إلى أنّ فرق السن بين الحسن والحسين ﷺ أقلّ من سنة، في حين يذهب البعض إلى أنّ الفرق بينهما سنة كاملة، بينما يذهب آخرون إلى أنّ الفرق سنة وبضعة أشهر. وفي الجميع الأحوال، فإنّ القدر المشترك بين جميع هذه الأقوال هو أنّ الفاصل الزمني بين ولادة الحسن ﷺ وولادة الحسين ﷺ كان قصيراً جدّاً، ولذلك لم يكونا توأمين في الروح فقط، بل كانا أشبه بالتوأمين في الجسد أيضاً، إذ وُلدا في فترة زمنيّة متقاربة جدّاً، وعاشا سوياً منذ لحظة ولادة الإمام الحسين ﷺ، وكبرا وترعرا معاً، ومن هنا نجد - كما ذكرنا سابقاً - اقتراناً دائماً بينهما في أغلب الروايات التي تتحدّث عنهما في فترة حياة رسول الله ﷺ، وكذلك في الأحداث التاريخية المنقولة عن علاقتهما برسول الله ﷺ. وإذا أردنا أن نتكلّم عن خصائص الإمام الحسن ﷺ، فلنا أن نبدأ أولاً بالحديث عن صفاته الخلقية، وهنا يكفيننا ما رُوي في كتب السنّة والشيعّة عن عددٍ من أصحاب النبي ﷺ من أنّ الحسن ﷺ كان أشبه الناس برسول الله ﷺ. وهذا المعنى لم يُنقل في حقّ الحسن ﷺ وحده، بل ورد في بعض الروايات أنّ الحسن

والحسين عليه السلام كانا أشبه الناس برسول الله ﷺ. وأما من ناحية التربية والصفات الخلقية، فيُغنيا ما رُوي من أنّ رسول الله ﷺ كان منذ السنوات الأولى من طفولة الحسن والحسين عليهما السلام يهتم بتربيتهما بنفسه، وهو الذي كان يقول في حقهما: «إِنَّ ابْنَيْ هَذَيْنِ رَبَّيْتُهُمَا صَغِيرَيْنِ وَدَعَوْتُ لَهُمَا كَبِيرَيْنِ»⁽¹⁾، فكان ﷺ يُعبر عنهما بـ«ابْنَي»، وفي بعض الروايات يُعبر ﷺ بـ«ابْنِي هَذَا» أو «وَلَدِي هَذَا» حينما يقصد الحسن أو الحسين عليهما السلام. وكلّ هذه التعبيرات لها دلالتها، إذ إنّ رسول الله ﷺ لا يستفيد من تعبيرٍ ما صدفةً أو عبثاً، بل إنّهُ يريد باستعماله لهذه التعبيرات أن يقول لنا أنّه هو الذي تكفل بتربية هذين الإمامين بنفسه وصنعهما على عينه. بل حتّى التربية التي كان يباشرها علي وفاطمة عليهما السلام لولديهما كانت دائماً تحت متابعة النبي ﷺ وإشرافه.

وقد كان رسول الله ﷺ يعبر دائماً عن حبه لهما وتعلّقه بهما في كلّ مناسبة وفرصة. وهذا في الحقيقة من الأمور الالفة للنظر، فالإنسان عادةً يُعبر عن حبه لأحدٍ ما مرّة أو اثنتين أو ثلاثة أو أربعة، أمّا أن يُكرّر تعبيره عن الحبّ مرّاتٍ كثيرة على مدى سنوات طويلة فهذا لافتٌ للنظر وخلافٌ للعادة. فعلى مدى سبع سنوات مع الحسن عليه السلام وستّ سنوات مع الحسين عليهما السلام، كان رسول الله ﷺ يستغلّ كلّ فرصة ومناسبة يحضران فيها للتعبير عن حبه وتعلّقه وتقديره وتعظيمه لهما، سواءً أكان ذلك أمام شخصٍ

(1) المفيد، محمّد بن محمّد بن النعمان، الأمالي، ج 1، ص 78.

واحدٍ أو اثنين أو جماعة من المسلمين أو جموعٍ غفيرةٍ منهم، فلا نجد مناسبةً كان فيها الحسن والحسين عليهما السلام بين يدي رسول الله ﷺ، إلا وكان يعبر عن عاطفته تجاههما، وسوف نقل بعضاً من الشواهد على ذلك لاحقاً.

ولم يقتصر الأمر على التعبير اللفظي عن الحبّ لهما، بل كانت طريقة تعامل رسول الله ﷺ مع الحسن والحسين عليهما السلام وملاطفته لهما من أبرز الشواهد على هذا الحبّ الذي كان يحمله تجاههما. فيروى في بعض الروايات أنّه إذا حدث أن كان رسول الله ﷺ جالساً في مجلسٍ ودخل عليه الحسن والحسين عليهما السلام يمشيان نحوه ببطءٍ، فإنّه كان يستبطنهما فيقف ويمشي إليهما ويستقبلهما ويحملهما ويضمّهما إليه، فتارةً يضمّهما إلى صدره، وأخرى يجلسهما على كتفيه، ثمّ إذا جلس يضع هذا على فخذه الأيمن وذاك على الأيسر، ويقبلهما ويشمّهما!

ثمّ إنّ هذه الألفاظ والحركات لم تكن لمجرد التعبير عن عاطفة جدّ تجاه سبطيه، بل كانت تعليمًا للأمة وتعريفًا لها بمقام هذين الإمامين العظيمين ومقامهما عند الله ورسوله، ولتعرف الأمة من هو هذا الإمام الذي ذُبح في عاشوراء وقُتل هو وأصحابه وأهل بيته وسُبيت نساؤه! ولتعرف الأمة من هما هذان الإمامان العظيمان اللذان تعرّضا لكل أشكال الظلم، وما هي منزلتهما عند الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ! ولذا كان ﷺ يضمّهما إلى صدره ويقبلهما ويشمّهما ويعبر عن حبه لهما ويقول للناس أنّه يحبّهما، بل ويأمرهم بحبّهما

ومودّتهما، وفي ذلك روايات كثيرة تتعدّى الواحدة والاثنتين والثلاثة، ولم ترد في كتب الشيعة فحسب، بل وردت في كتب السنّة والشيعة وفي مختلف المصادر الروائيّة، حتّى بلغت حدّ الشهرة والتواتر. ونذكر في ما يلي شيئاً يسيراً من هذه الشواهد الروائيّة:

(1) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْوَلَدُ الصَّالِحُ رِيحَانُهُ مِنَ اللَّهِ قَسَمَهَا بَيْنَ عِبَادِهِ، وَإِنَّ رِيحَانَتِي مِنَ الدُّنْيَا الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ».⁽¹⁾

(2) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحَصِينِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِي: «يَا عِمْرَانُ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظًا مِنَ الْقَلْبِ، وَمَا وَقَعَ مَوْعِظَ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ مِنْ قَلْبِي شَيْءٌ قَطُّ»، فَقُلْتُ: «كُلُّ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» قَالَ: «يَا عِمْرَانُ وَمَا خَفِيَ عَلَيْكَ أَكْثَرُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِحُبِّهِمَا».⁽²⁾

فهذا الحبّ كما تفيد الرواية ليس حبّاً شخصياً من جدّ لسبطيه، بل هو حبّ ذو بُعد ديني إلهي، والله هو الذي أمر رسوله به. (3) رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَ يُحِبُّنِي فَلْيُحِبِّ ابْنِي هَذَيْنِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِحُبِّهِمَا».⁽³⁾

(4) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ هَذَا عَلَى عَاتِقٍ وَهَذَا عَلَى عَاتِقٍ وَهُوَ يَلْتِمُ هَذَا مَرَّةً وَهَذَا مَرَّةً، فَقَالَ جَبْرَائِيلُ: «إِنَّكَ تُحِبُّهُمَا»، قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّهُمَا

(1) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج 11، ص 327.

(2) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات، ج 1، ص 50.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 51.

وَأَحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُمَا، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَإِنَّ مَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي»⁽¹⁾.

(5) وَرَوَى أَنَّ الْعَبَّاسَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ يَعُودُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ فَرَفَعَهُ وَأَجْلَسَهُ فِي مَجْلِسِهِ عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَفَعَكَ اللَّهُ يَا عَمَّ»، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: «هَذَا عَلَيَّ يَسْتَأْذِنُ»، فَقَالَ: «يَدْخُلُ، فَدَخَلَ وَمَعَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ﷺ»، فَقَالَ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَؤُلَاءِ وَلَدُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ»، قَالَ: «هُمْ وَلَدُكَ يَا عَمَّ، أَتُحِبُّهُمَا؟» قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «أَحَبَّكَ اللَّهُ كَمَا أَحَبَّهُمَا»⁽²⁾.

وبالإضافة إلى أَنَّ رسول الله ﷺ كان يحملهما على كتفيه أو يضمهما إلى صدره أو يجلسهما على فخذيه الأيمن والأيسر - وهو ما يستفيد منه بعض علماء التربية للتأكيد على الاقتداء بالنبي ﷺ في مسألة تربية الأولاد وإظهار الحبّ لهم، فإنَّ من الأحداث التفصيلية المنقولة كثيراً في الروايات والتي وقعت عدّة مرّات ونقلها الصحابة، هو أَنَّ رسول الله ﷺ كان يلعب الحسن والحسين ﷺ بحيث ينحني فيركبان على ظهره فيمشي بهما داخل المنزل. حتّى أَنَّ أحد الصحابة يروي أَنَّهُ دخل على رسول الله ﷺ فرأى الحسن والحسين ﷺ على عاتقيه فقال لهما: «نِعَمَ الْفَرَسَ لَكُمَا»، فقال له رسول الله ﷺ: «وَنِعَمَ الْفَارِسَانِ هُمَا»⁽³⁾. والروايات

(1) الطبري، عماد الدين، بشارة المصطفى لشيعته المرتضى، ج 1، ص 264.

(2) (الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، ج 1، ص 496.

(3) ابن شهرآشوب، محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب، ج 2، ص 387.

التي وردت فيها معانٍ شبيهة بهذا المعنى كثيرة، ومنها أنَّ رسول الله ﷺ كان يبرك للحسن والحسين ﷺ فيحملهما ويقول لهما: «نِعْمَ الْجَمَلِ جَمَلُكُمَا، وَنِعْمَ الرَّكَبَانِ أَنْتُمَا»⁽¹⁾. فبهذه الطريقة كان رسول الله ﷺ يلاعبهما ويداعبهما، بل ويعبّر عنهما بـ«نِعْمَ الرَّكَبَانِ» و«نِعْمَ الْفَارِسَانِ»، فحتّى في مثل هذه المواضع لم يكن يفوّت فرصة بيان عظمة شأنهما.

هذا بالإضافة إلى ما ورد في كثيرٍ من الروايات من أنَّ الحسن والحسين ﷺ كانا في صغرهما يدخلان مسجدَ رسول الله ﷺ في بعض الأحيان وهو يصليّ بالمسلمين جماعةً، فإذا هوى إلى السجود يصعدان على ظهره ويجلسان عليه، فكان رسول الله ﷺ يطيل سجوده ثم يرفع رأسه بهدوءٍ وبطءٍ لئلا يسقطا أرضاً أو يتأدّيا، ثم يعود إلى السجود مرّةً أخرى فيصعدان على ظهره فيطيل السجود أيضاً، حتّى كان بعض الصحابة يقولون أنّهم كانوا يظنّون أنَّ رسول الله ﷺ قد أصابه شيء حتّى أطال سجوده، في حين أنّه ﷺ كان يطيل سجوده فقط لئلا يتأدّى الحسن والحسين ﷺ أو ينزعجا! وقد ورد هذا المعنى في نصوص كثيرة.

وممّا رُوي أيضاً أنَّ رسول الله ﷺ كان يصليّ وبعض صحابته واقفون إلى جانبه، وإذ بالحسن والحسين ﷺ يصعدان على ظهره، فيحاول الصحابة إنزالهما عن ظهر النبي، فيشير لهم

(1) ابن شهر آشوب، محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب، ج 2، ص 387.

النبى ﷺ بأن يتركوهما ثم يُنزلهما عن ظهره بهدوء، كل ذلك خوفاً من يتأدياً أو ينزعجا!

فلنتصور هذه الروايات وهذه الأحداث، ثم نقارنها بما حلّ على الحسن والحسين ﷺ من ظلم وأذى، وما حصل يوم كربلاء! من هنا يجب أن يعلم الجميع سرّ البكاء على الحسين ﷺ وما جرى في عاشوراء. فإذا كان رسول الله ﷺ يخاف أن يتأذى أو يتألم أو ينزعج سبطاه بمثل هذه الأمور البسيطة، فما هو شعوره حيال ما جرى عليهما من ظلم وقتل بعد رحيله؟

وقد روي عن أنس بن مالك أنّه قال: كتب النبي ﷺ لرجلٍ عهداً فدخل الرجل يسلم على النبي ﷺ والنبي يصلي، فرأى الحسن والحسين ﷺ يركبان على عنقه مرّة وعلى ظهره مرّة ويمرّان بين يديه ومن خلفه، فلمّا فرغ من الصلاة قال له الرجل: «مَا يَقْطَعَانِ الصَّلَاةَ؟» [وكان يسأل سؤالاً فقهياً حول ما إذا كان لعب الحسن والحسين وركوبهما على عنق النبي وظهره أثناء الصلاة مبطلاً لها]. فغضب النبي ﷺ فقال: «نَاوِلْنِي عَهْدَكَ»، فأخذه ومزّقه ثم قال: «مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَتَا [وكلّامه عن أهل البيت ﷺ] وَلَمْ يُوقِّرْ كَبِيرَتَا فَلَيْسَ مِنَّا وَلَا أَنَا مِنْهُ»⁽¹⁾.

فما هو موقف رسول الله ﷺ ممّا جرى على صغار أهل بيته ﷺ وكبارهم في كربلاء عام 61 للهجرة!

(1) الشافعي، شهاب الدين، فضائل الثقلين من كتاب توضيح الدلائل، ص 483.

في ختام حديثنا عن حبّ رسول الله ﷺ للحسن والحسين ﷺ، لا بدّ أن نشير إلى آية المودّة التي تُثبت هذا المعنى بوضوح، والتي اعتبرت مودّة أهل بيت النبي ﷺ أعظم أجر لأعظم رسالة، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾⁽¹⁾، وعند البحث عن المراد بالقربى في هذه الآية، نجد البعض يقول إنهم أهل البيت ﷺ، والبعض الآخر يقول إنهم بنو هاشم، وآخرون يوسّعون الدائرة شيئاً ما وغيرهم يضيّقها، غير أنّ القدر المتيقّن من القربى هم علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ.

لم يفارق الحسن والحسين ﷺ رسول الله ﷺ ولم يفارقهما حتّى في ساعات مرضه الأخير واللحظات الأخيرة من حياته، بل جاء في بعض الروايات أنّه في تلك الساعات جاء الحسن والحسين يصيحان ويبكيان حتّى وقعا على رسول الله ﷺ، فأراد أمير المؤمنين ﷺ أن ينحيهما عنه، فأفاق ﷺ وقال لأمر المؤمنين: «دَعُهُمَا، أَشْمُهُمَا وَيَشْمَانِي وَأَتَزَوَّدَ مِنْهُمَا وَيَتَزَوَّدَانِ مِنِّي»⁽²⁾، فأيّ دلالةٍ يحمل طلبُ رسول الله ﷺ من أمير المؤمنين قبل ساعات من موته أن يُبقي الحسن والحسين ﷺ قربه كي يضمّهما ويشمّهما ويتزوّد منهما؟! وقد حضر الحسن والحسين ﷺ تغسيل رسول الله ﷺ وتكفينه وتجهيزه والصلاة عليه ودفنه، وبهذا تكون هذه العلاقة العاطفية

(1) سورة الشورى، الآية 23.

(2) ابن شهر آشوب، محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 237.

والروحية والنفسية والمعنوية المتينة والقوية قد استمرت من لحظة ولادة الحسن والحسين عليهما السلام إلى لحظة وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

حوادث للحسين عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله

خلال السنوات القليلة من حياة الحسن والحسين عليهما السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله، حصلت مجموعة من الأحداث المهمة التي تحكي عن تربية رسول الله صلى الله عليه وآله للحسن والحسين عليهما السلام من جهة، وعن سعيه إلى تعريف الأمة بمقامهما ومنزلتهما وعظمتهم من جهة ثانية، وسوف نكتفي بذكر أهم وأبرز هذه الأحداث، وإن كانت المصادر الروائية والكتب التاريخية زاخرة بالكثير من هذه الأحداث، على الرغم من قلة عدد السنوات التي لازم فيها الحسن والحسين عليهما السلام رسول الله صلى الله عليه وآله.

• الحادثة الأولى: حادثة المباهلة

وتعتبر حادثة المباهلة واحدة من أشهر الأحداث التي وقت في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، والتي يعرفها جميع المسلمين من السنة والشيعة، إلا أننا نعيد سردها باختصار لعل من بين الجيل الجديد من لم يسمع بهذه الحادثة العظيمة.

بعد عدة سنوات من هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة المنورة، بدأت سطوة قريش وقبضتها تضعف شيئاً فشيئاً، فساد حدٌ معين من الأمن والأمان في المدينة. وكان من آثار هذا الظرف الجديد

أن باتت تأتي بعض الوفود من مختلف أنحاء الجزيرة العربيّة إلى المدينة للقاء رسول الله ﷺ، ومن هذه الوفود كان وفد من منطقة نجران التي تقع اليوم في المملكة العربيّة السعوديّة، وإن كانت مدينة يمنيّة في الأصل. في ذلك الوقت كان أهل نجران من العرب المنتسبين للدين المسيحي، ويُقال لهم نصارى نجران، وكانت نجران تمثّل مركزاً دينيّاً مسيحياً يضمّ كبار رجال الدين المسيحيّين. وقد شكّل نصارى نجران وفداً كبيراً يضمّ ستين ركباً، منهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم وكبارهم، وقدموا إلى المدينة المنورة من أجل محاوره رسول الله ﷺ. وقد طال الحوار بين رسول الله ﷺ ونصارى نجران من دون الوصول إلى نتيجة، فطُرحت فكرة المباهلة، وهي فكرة معروفة في التاريخ ونُقِلت حولها قصص كثيرة، ومفادها أنّه إذا حصل جدال ونقاش بين فئتين أو شخصين حول موضوع معيّن من دون الوصول إلى نتيجة، وأراد أحدهما أن يثبت أنّه على حقّ، فيمكن اللجوء إلى المباهلة، بمعنى أن يبتهل كلّ طرفٍ من المتخاصمين إلى الله تعالى ويدعوه بأن ينزل عذابه وغضبه ولعنته على الطرف الآخر إن كان على باطل وكان هو على حقّ.

اتّفق الطرفان على موعدٍ هو الرابع والعشرون من ذي الحجة من العام التاسع للهجرة، بحيث يجتمعان في مكانٍ واحدٍ ويحضر الناس، وتجري المباهلة بين رسول الله ﷺ من جهة، وكبار نصارى نجران من جهة أخرى.

كلّ ما كان يحتاجه رسول الله ﷺ في هذه المباهلة هو أن يدعو الله تعالى ويبتهل إليه أن يُنزل عذابه على نصارى نجران، فكان يكفيه أن يحضر المباهلة وحده، إذ إنّ رسول الله ﷺ باعتقاد جميع المسلمين هو سيّد الخلق، وسيّد الرسل، وخاتم النبيّين، وأحبّ الخلق إلى الله وأقربهم إليه، فلو ابتهل إلى الله تعالى وحده لكفى ذلك في نزول عذاب الله على نصارى نجران دون أدنى شك. ولكن على الرغم من ذلك كلّّه، فإنّنا نجد الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي نزلت في هذه الحادثة والمعروفة بآية المباهلة يأمر نبيّه قائلاً: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾⁽¹⁾.

فقد كان مفاد أمر الله لنبيّه أنّه: يا محمّد، قل لهم تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم للمباهلة. فلم يكن القرار الإلهي أن يحضر النبي إلى المباهلة وحده، على الرغم من منزلته التي لا يبلغها أحد، بل أراد الله سبحانه وتعالى في هذه الحادثة أن يأتي الأبناء والنساء والأنفس للمباهلة، وقد أجمعت الروايات التاريخيّة على أنّه حينما حلّ الموعد غدا رسول الله ﷺ إليهم أخذوا بيد الحسن والحسين ﷺ، وفاطمة ﷺ

(1) سورة آل عمران، الآية 61.

تمشي خلفه وعليّ عليه السلام خلفها، وهو يقول لهم: «إذا أنا دعوتُ فأمنوا»⁽¹⁾، أي: إذا أنا دعوت فقولوا آمين.

وقد ذُكر في تفسير آية المباهلة أنَّ المراد من ﴿أَبْنَاءَنَا﴾ الحسن والحسين عليهما السلام، والمراد من ﴿نِسَاءَنَا﴾ فاطمة عليها السلام، والمراد من ﴿أَنْفُسَنَا﴾ محمد عليه السلام وعليّ عليه السلام، وهذا من المسائل الواضحة التي لا نقاش فيها، ولذلك نجد الإمام الحسن عليه السلام يستشهد بهذه الواقعة في المساجلات التي دارت بينه وبين معاوية لاحقاً، حيث يقول: «(...) وفضيلةً فضّلنا بها على سائر العباد، فقال الله تعالى لمحمد عليه السلام حين جرده كفره أهل الكتاب وحاجوه: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، فأخرج رسول الله من الأنفس معه أبي، ومن البنين أنا وأخي، ومن النساء أمي فاطمة من الناس جميعاً، فنحن أهلُه ولحمه ودمه ونفسه ونحن منه وهو منّا»⁽²⁾.

فعلى الرغم من أنَّ حضور رسول الله عليه السلام وحده كان كافياً لحصول المباهلة ووقوع نتیجتها، إلا أنَّ أمر الله كان إحضار الأولاد والنساء والأنفس أيضاً، فما السرُّ في ذلك؟ لا شك في أنَّ من أهداف هذا الأمر الإلهي هو بيان عظمة هؤلاء ومنزلتهم ومقامهم عند الله، وتعريف المسلمين وكذلك المسيحيين الذين قدموا من نجران، بل وتعريف العالمين ممَّن سيصل إلى مسامعهم هذا الحدث

(1) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، ج 3، ص 370.

(2) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج 69، ص 154.

التاريخي إلى قيام الساعة بمقام هؤلاء الأشخاص ودورهم المحوري في الحركة النبوية والدين الإسلامي. فهذا الأمر الإلهي إذًا هو أمر ممنهج ومدروس وله أبعاد وأهداف ترتبط بالحركة النبوية. ومن جهةٍ أخرى قد يكون من أهداف هذه الخطوة وهذا الأمر الإلهي ما سيقع في نفوس المباهلين من نصارى نجران. إذ إنَّ من الأمور التي وقعت محلًّا للنقاش والتداول بين نصارى نجران قبل المباهلة هو أنه: مع من سوف يأتي محمّد إلى المباهلة؟ ومن سوف يحضر معه؟ ففرقٌ بين أن يأتي ومعه عدّة من أصحابه وبعض من النساء اللاتي آمنَّ معه ويُبقي عائلته وأهل بيته جانبًا، وبين أن يأتي بعائلته وأهل بيته إلى المباهلة. فحينما يأتي الإنسان بأحب الناس إليه وأعظمهم منزلةً عنده إلى المباهلة، فهذا يعني أنّه على يقينٍ قاطع وجازم ممّا يعتقد به! ولا يخفى ما في ذلك من أثرٍ يقع في نفس الطرف المقابل، ولذلك عبّر رسول الله ﷺ - كما نُقل في بعض الروايات - بقوله: «أجل أباهلكم بهؤلاء خير أهل الأرض وأفضل الخلق»⁽¹⁾. وهذا بالطبع يكشف للطرف المقابل أنّه على استعدادٍ عالٍ للتضحية بابنته وسبطيه وأخيه وابن عمّه بل ونفسه علي بن أبي طالب عليه السلام في سبيل المعتقد الذي يعتقد به، ويبين لهم شدّة رسوخ هذا الاعتقاد لديه.

(1) مرتضى العاملي، جعفر، الحياة السياسيّة للإمام الحسن عليه السلام، ص 20.

• الحادثة الثانية: سورة الدهر

من الحوادث البارزة المرتبطة بالإمامين الحسن والحسين عليهما السلام في زمن حياة رسول الله ﷺ الحادثة المعروفة التي نزلت فيها سورة الدهر أو سورة الإنسان، والتي تُعتبر من أشهر الحوادث التي تُذكر في بيان فضائل أهل البيت عليهم السلام.

وقد وقعت هذه في المدينة المنورة وفي السنوات الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ، حينما مرض الحسن والحسين عليهما السلام مرضاً شديداً، فعادهما رسول الله ﷺ ومعه أصحابه، فطلب من أمير المؤمنين عليه السلام أن ينذر نذراً لله تعالى إن شفى الحسن والحسين عليهما السلام، فقال أمير المؤمنين: إن عافى الله وُلدي ممّا بهما، صمْتُ لله ثلاثة أيّام متواليات. وقالت فاطمة عليها السلام مثل ما قاله علي عليه السلام، وكانت لهما جارية تُدعى فضّة، فقالت: إن عافى الله سيّدَيّ ممّا بهما صمْتُ لله ثلاثة أيّام.

فلما شفى الله الحسن والحسين عليهما السلام، كان لا بدّ من أداء النذر والصيام، فصاموا اليوم الأوّل جميعاً، أي علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ومعهم الخادمة فضّة. وقد كان الفقر في بيت أمير المؤمنين عليه السلام شديداً، إلى درجة أنّهم لم يكن لديهم ما يأكلونه، حتّى أنّ الروايات تقول إنّ أمير المؤمنين عليه السلام أحضر ثلاث أصوع من الشعير، ولم يكن ذلك هديّةً من أحد ولا شراءً، إذ لم يكن لدى أمير المؤمنين ما لا يشتري به الشعير، بل كانت أصوع الشعير الثلاثة تلك لقاء أن تغزل السيّدة فاطمة عليها السلام كمّيّة من الصوف لأصحاب الشعير.

أحضر أمير المؤمنين عليه السلام أصوع الشعير، فقامت الجارية في اليوم الأول وعجنت صاعاً منها وخبزت منه خمسة أقراص: قرص لعلي وقرص لفاطمة وقرص للحسن وقرص للحسين وقرص لها. هذا كان إفطار بيت علي وفاطمة، قرص من الشعير لكل فردٍ دون أي شيءٍ آخر وعندما نقول قرصاً من الشعير، فنحن نتحدث عن قرصٍ دون أي خميرة أو ما يُلينُه، بل لشدة قساوته يُكسر كسرًا كي يؤكَل مع الماء! فَمَنْ مِنَ المسلمين اليوم يقبل بأن يكون هذا إفطاره بعد يومٍ من الصيام، سواء كان الصوم واجباً أو مستحباً؟

على أية حال، صلى أمير المؤمنين عليه السلام مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم، ثم رجع إلى بيته كي يفطر، فلما وُضعت أقراص الشعير أمامهم وأرادوا أن يبدأوا بأكلها، فإذا بسائلٍ يطرق الباب ويقول: السلام عليكم يا أهل بيت محمد ﷺ، أنا مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فأراد أمير المؤمنين عليه السلام أن يعطي حصته من الطعام للمسكين، ففعلت فاطمة عليها السلام مثله، وكذلك الحسن والحسين عليهما السلام وفضة، فقام عليه السلام وأعطى الأقراص الخمسة للمسكين، وباتوا على صومهم ولم يذوقوا إلا الماء. في اليوم الثاني، عجنت الخادمة صاع الشعير الثاني وخبزت منه خمسة أقراص، وصلى أمير المؤمنين عليه السلام مع النبي ﷺ ثم أقبل إلى بيته ليفطر، فلما وضعوا الطعام وأرادوا أكله، إذا بـيَتيمٍ يطرق الباب قائلاً: السلام عليكم يا أهل بيت محمد ﷺ، أنا يتيم من

يتامى المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. ففعلوا ما فعلوه في اليوم الأول.

وكذا الحال في اليوم الثالث، إذ عجنت الخادمة الصاع الثالث وخبزت منه خمسة أقراص، فلما عاد أمير المؤمنين عليه السلام من الصلاة وأرادوا أن يفطروا، فإذا بأسير يطرق الباب قائلاً: السلام عليكم يا أهل بيت محمد ﷺ أطعموني فأني أسير محمد. فأعطوه طعامهم، وباتوا على صومهم، ولم يذوقوا إلا الماء، وهكذا أتموا نذرهم ثلاثة أيام من دون أن يذوقوا الطعام، إلى درجة أن الرواية تقول إن أمير المؤمنين عليه السلام أخذ بيد الحسن والحسين عليهما السلام إلى منزل رسول الله ﷺ وهما كالفرخين لا ريش لهما يرتجفان من الجوع. فلما نظر إليهما رسول الله ﷺ اغرورقت عيناه بالدموع، وأخذ بيد الحسن والحسين عليهما السلام فانطلق بهما إلى منزل فاطمة عليها السلام، فلما نظر إليها رسول الله ﷺ وقد تغير لونها وبطنها لاصق بظهرها، انكب عليها يقبل بين عينيها.

لا تكمن أهمية هذه الحادثة في أنهم لم يكن لديهم ما يأكلونه، ولا في أنهم أعطوا شيئاً ممّا لديهم، بل تكمن أهميتها في أنهم أعطوا كلّ الطعام الذي كان لديهم حتى لم يبقَ لهم سوى الماء، ولو طلب المحتاجون الماء لقدّموه أيضاً، والأهم من ذلك كله هو: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾، أي الإخلاص الشديد لله تبارك وتعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾.

هذه الحادثة كانت السبب في نزول سورة الدهر أو سورة الإنسان، وهذا من الأمور المتفق عليها بين المفسرين والعلماء المسلمين، من دون خلاف بينهم. ولا بأس بأن نذكر بعض آيات هذه السورة، وتحديدًا تلك التي لها ارتباط مباشر بالحادثة، وإن كانت كل آيات السورة مرتبطة بالحادثة.

يقول الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ مَنْ هم الأبرار؟ يجب الله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ٦ يُوفُونَ بِالْإِثْمِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ٧ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ٩﴾⁽¹⁾. فهم لا يريدون مدحًا ولا تبيحلاً ولا شكرًا ولا شعراً ولا مالاً ولا منصباً ولا سلطةً ولا أي شيء: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوسًا قَمْطَرِيرًا ١٠ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾⁽²⁾.

ثمّ تسرد الآيات عظيم النعم التي سوف تُعطى لهؤلاء الأبرار في الجنة، والذي عبّر عنه بـ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾⁽³⁾، إلى أن يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾⁽⁴⁾، أي إنّ هذا جزاء لعلي وفاطمة والحسن

(1) سورة الإنسان، الآيات 5 إلى 9.

(2) المصدر نفسه، الآيتان 10 و11.

(3) المصدر نفسه، الآية 20.

(4) المصدر نفسه، الآية 22.

والحسين عليه السلام، ومعهم تلك الخادمة فضة، التي اتبعتهم بصدق وإخلاص. فكل هذا النعيم والملك الكبير هو جزاء لهم على إخلاصهم، وكان سعيهم مشكوراً.

وإن في هذه الآيات نكتة جميلة سمعتها من أحد علماء أهل السنة، وإن لم أقرأها في مصدرٍ من المصادر، فلا بأس بذكرها هاهنا. يقول هذا العالم: ألا تلاحظون أن الله تبارك وتعالى في سورة الإنسان، وأثناء تعدادهِ لنعم الجنة، ذكر نعيمها وماءها وطعامها وثيابها وظلالها وقطوفها وغير ذلك، إلا أنه لم يتحدث عن الحور العين، خلافاً لما نجده في سائر السور؟ يقول: لعل الله تبارك وتعالى في سورة الإنسان لم يذكر الحور العين تعظيماً واحتراماً للسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام المقصودة في آيات هذه السورة.

• الحادثة الثالثة: حادثة الكساء المعروفة

ومن الأحداث البارزة والمشهورة الواردة في كتب السنة والشيعة، والمروية أحياناً من قبل مَنْ هم خارج دائرة أهل البيت عليهم السلام بالمعنى الخاص، كأم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين أم سلمة، والتي قد تكون من الأحداث التي تكرر وقوعها أكثر من مرة، أي وقعت مرةً في بيت السيدة عائشة وأخرى في بيت السيدة أم سلمة، هي حادثة الكساء المعروفة.

ومفاد هذه الحادثة باختصارٍ أن رسول الله ﷺ كان عنده كساء خيري من أرض فدك، والكساء هو الثوب أو الرداء، فجلس هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام تحت هذا الكساء وقال:

«اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي، اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»⁽¹⁾، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾⁽²⁾. والآية واضحة الدلالة، والتطهير من الرجس يعني التطهير من كل أمر سيئ يرتبط بالنفس والروح، ولذلك كانت هذه الآية من الآيات التي يُستدلُّ بها على عصمة أهل البيت عليهم السلام.

كما وتوجد تكملة مهمّة لهذه الحادثة، حيث يُنقل أنّ هذه الحادثة قد وقعت قبل وفاة رسول الله ﷺ بعدة أشهر، حيث يقول البعض إنّها وقعت قبل وفاته بتسعة عشر شهرًا، وآخرون يقولون قبل وفاته بسبعة عشر شهرًا، بينما يذهب البعض إلى أنّها وقعت قبل أقلّ من سنةٍ من وفاة الرسول ﷺ، أي قبل حدود العشرة أشهر، ولكنّ المشترك بين هذه الأقوال أنّ هذه الحادثة قد وقعت في العام الذي عُرف بـ«عام الوفود»، وهو العام التالي لفتح مكّة، حيث كان رسول الله ﷺ قد انتصر وفتح مكّة وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، فكانت الوفود تأتي إلى المدينة المنورة، وإذ لم يكن في تلك الأزمنة فنادق وأماكن استقبال للضيوف، فقد كانت الوفود في الغالب تنزل ضيوفًا على المسلمين في بيوتهم أو تستقرّ في المسجد وتنام فيه.

(1) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج 35، ص 213.

(2) سورة الأحزاب، الآية 33.

وقد كان مسجد رسول الله ﷺ قرب بيته، وكان بين بيت علي عليه السلام والمسجد باباً، فكان رسول الله ﷺ منذ نزول الآية حتى وفاته - أي على مدى تسعة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً أو تسعة أشهر - يأتي كل صباح عند مطلع الفجر ويقف عند باب بيت علي وفاطمة عليه السلام، فيدق الباب ويدعوهم للصلاة قائلاً: «الصَّلَاةُ يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾⁽¹⁾. فعلى مدى هذه الأشهر الطويلة، كان رسول الله ﷺ في كل يومٍ عند صلاة الصبح يناديهم بهذا النداء، والمسجد مليء بالمسلمين الذين يأتون للصلاة والوفود القادمة من خارج المدينة، فكم شخصٍ قد سمع هذا النداء؟! ومن هنا، فلا مجال للنقاش في أنَّ المقصود من أهل البيت في الآية الكريمة هنَّ زوجات النبي ﷺ، مع احترامنا العظيم لأمهات المؤمنين ومكانتهنَّ ومقامهنَّ، إلا أنَّ سبب نزول الآية وكلَّ الروايات المروية حولها، بل وسيرة رسول الله ﷺ من قوله وفعله، كل ذلك يؤكد على أنَّ الآية نازلة في علي وفاطمة والحسن والحسين عليه السلام، ومنطبقة عليهم وهم المقصودون بأهل البيت فيها.

(1) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج 82، ص 196.

تعامل رسول الله ﷺ مع الحسنين ﷺ على أنهما كبيرين

من جملة الأمور التي نلاحظها في سيرة رسول الله ﷺ مع الحسن والحسين ﷺ هو أنه لم يكن يتعامل معهما على أنهما صبياناً صغيران، بل كان يتعامل معهما على أنهما كبيرين. وهناك شواهد كثيرة على ذلك، من جملتها الواقعة المعروفة ببيعة الرضوان، التي حدثت قبل فتح مكة حينما خرج النبي ﷺ مع عدد من الصحابة من المهاجرين والأنصار لزيارة بيت الله الحرام، فقطع عليهم المشركون الطريق حين وصولهم إلى منطقة الحديبية، وهناك جدّد الصحابة من المهاجرين والأنصار بيعتهم لرسول الله ﷺ. وقد مثلت هذه الحادثة واحدةً من أهمّ الأحداث في التاريخ الإسلامي، إذ كانت تُعبّر عن مرحلةٍ جديدةٍ من دعوة النبي ﷺ، وهي مرحلة البيعة على النصر العظيم الآتي وظفر المسلمين وما سيؤول إليه من فتح مكة المكرمة ودخول الناس إلى دين الله أفواجاً. وقد كان المعروف في ذلك الزمان أن لا تؤخذ البيعة ممّن لم يبلغ سنّ التكليف، ومع ذلك فحينما أخذ رسول الله ﷺ البيعة من المهاجرين والأنصار، أخذها أيضاً من الحسن والحسين ﷺ، مع أنّ عمرهما آنذاك لم يتجاوز الخمس سنين.

ومن الشواهد التاريخية على هذا النحو من التعامل أيضاً ما يُنقل من أنه في عام الوفود وبعد انتصار المسلمين وفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، قدمت قبيلة ثقيف إلى المدينة المنورة لعقد وثيقةٍ مع رسول الله ﷺ. وقبيلة ثقيف هذه تُعدّ واحدةً

من القبائل الكبيرة والبارزة في شبه الجزيرة العربيّة، وكانت تسكن في مدينة الطائف، والتي تُعدّ من المدن المهمّة جدًّا في الحجاز. وقد كانت الوثيقة التي عُقدت بين رسول الله ﷺ وقبيلة ثقيف من الوثائق المهمّة في التاريخ الإسلامي، ونصّها موجود في كتب التاريخ إلاّ أنّه لا مجال لنقلها هنا، ولكنّها كانت تتعلّق بالأملّك والمشاعات وحرم مدينة الطائف وبعض المسائل الماليّة والاقتصاديّة والأمنيّة والاجتماعيّة وما شابه ذلك. وقد وقّع على هذه الوثيقة المهمّة كبار القوم من الطرفين، ولكنّ اللافت أنّ جميع كتب التاريخ تُصرّح بأنّ الذين وقّعوا من جانب رسول الله ﷺ كانوا: علي والحسن والحسين ﷺ وخالد بن سعيد بن العاص، والذي كان من صحابة رسول الله ﷺ وهو الذي كتب الوثيقة بخط يده. وهذا في الحقيقة يمثّل مؤشّرًا وشاهدًا على كيفيّة تعامل النبي ﷺ مع الحسن والحسين ﷺ وكيف كانت نظرته إليهم على الرغم من عدم تجاوزهما السابعة من العمر! بل وهذا يكشف أيضًا عن نظرة الآخرين - من المسلمين وغير المسلمين - إلى منزلة الحسن والحسين ﷺ التي كان يكرّسها رسول الله ﷺ. ففي ظرفٍ مثل هذا، وأثناء توقيع وثيقة مهمّة وتاريخيّة مع قبيلة من أهمّ القبائل في شبه الجزيرة العربيّة، يأتي رسول الله ﷺ بفتيتين صغيرين كي يوقّعا كشهودٍ على الوثيقة من الجانب الإسلامي، رغم أنّ المدينة المنورة كانت مليئةً بالصحابة من المهاجرين والأنصار، ومع ذلك لم ترَ قبيلة ثقيف في الأمر إهانةً

لها أو انتقاصاً منها- رغم أنها قريبة العهد بالجاهليّة، بل تعاملت مع الأمر بنحوٍ طبيعي، وكذلك فعل الصحابة أيضاً، كلّ هذا لأنّ رسول الله ﷺ كان قد كرّس لدى المسلمين، بل وغير المسلمين أيضاً، منزلةً وشخصيّةً للحسن والحسين ﷺ.

ومن جملة هذه الشواهد أيضاً أنّ من العادات التي كانت سائدةً في ذلك الزمان أن لا يقف الناس لاستقبال من يدخل مجلسهم إلّا إذا كان الداخل شخصيّة محترمةً وعظيمة الشأن. فلم يكن العرب يقفون لكلّ داخلٍ كائنًا من كان، ولو كان كبير السنّ، بل يُشترط أن يكون ذا شأن ومنزلة. ولكنّا مع ذلك نجد في الروايات التاريخيّة أنّ رسول الله ﷺ كان يأمر أصحابه بالوقوف إذا دخل الحسن والحسين ﷺ إلى مجلسهم، وإن لم يكن هو حاضرًا معهم، وكان يأمرهم باحترامهم وإجلالهم وتقديرهم. ومن الواضح أنّ هذه الأوامر ليست أوامر شخصيّة وعاطفيّة أو أوامر عابرة، بل تعكس نظرة رسول الله ﷺ إلى هذين الإمامين منذ صغرهما.

وآخر الشواهد التي سوف نتعرّض لها هي بعض العبارات التي استعملها رسول الله ﷺ في كلامه عن الحسن والحسين ﷺ، والتي تكشف عن عظمة منزلتهما عنده على الرغم من صغر سنّهما. ومن بينها العبارة المعروفة والمتداولة على الألسن، والتي يقول فيها رسول الله ﷺ في وصفه الإمام الحسين ﷺ: «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ»⁽¹⁾. ومن الجدير بالذكر أنّ هذا التعبير بعينه

(1) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات، ج 1، ص 52.

قد ورد في حق الإمام الحسن عليه السلام، فقد رُوي عن رسول الله ﷺ أن قال: «حَسَنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حَسَنٍ»⁽¹⁾، وهذا يكشف عن أنّ الأهداف التي حقّقها الحسين عليه السلام هي بعينها التي حقّقها أخوه الحسن عليه السلام، فهما اللذان حفظا الإسلام والأمة. وكما أنّا نفَسّر قولَ رسول الله ﷺ: «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ» بأنّ الحسين عليه السلام هو الذي سيحفظ دين محمّد ﷺ ورسالته، فهذا المعنى بعينه ينطبق أيضًا على الحسن عليه السلام.

ومن العبارات المعروفة المروية عن رسول الله ﷺ في وصفه الحسن والحسين عليه السلام، والتي توصلنا إلى معرفة المسؤولية الملقاة على عاتقهما في حفظ الإسلام وتبَيّن لنا منزلتهما في الأمة الإسلامية، قوله ﷺ: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ إِمَامَانِ قَامَا أَوْ قَعَدَا»⁽²⁾، وفي نصّ ثانٍ: «ابْنَايَ هَذَانِ إِمَامَانِ قَامَا أَوْ قَعَدَا»⁽³⁾، وفي نصّ ثالثٍ: «وَلَدَايَ هَذَانِ إِمَامَانِ قَامَا أَوْ قَعَدَا»⁽⁴⁾. ونحن كيفما فسرنا مراد رسول الله ﷺ من قوله «إمامان»، ومهما اختلفت في ذلك آراء المذاهب العقائدية والكلامية، إلّا أنّ هاهنا قدرًا متيقنًا هو المسؤولية الكبرى التي يحملها الحسن والحسين عليه السلام في الأمة، وهو ما يمثّل أبسط لوازم كون الإنسان إمامًا.

(1) الطبري، عماد الدين، بشارة المصطفى لشيعته المرتضى، ج 1، ص 469.

(2) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج 43، ص 291.

(3) المصدر نفسه، ج 108، ص 227.

(4) الحلي، الحسن بن يوسف بن مُطهر، تذكرة الفقهاء، ج 5، ص 435.

ومن العبارات المعروفة والمتواترة والمروية بكثرة في كتب الشيعة والسنة، والواضحة من حيث الدلالة، والتي لا تقبل التأويل ولا التخفيف من معناها، ما رُوي عن رسول الله ﷺ من قوله: «الحسنُ والحسينُ سيِّدا شبابِ أهلِ الجنَّةِ»⁽¹⁾. وهذا المقام بلا شك مقام تشريفي للحسن والحسين ﷺ ويحكي عن عظمة منزلتهما، فإذا كان لا بد للإنسان أن يكون من أهل الإيمان والعمل الصالح والجهاد والتضحية حتّى يدخل الجنّة، فأيّ مقام ينبغي أن يكون له حتّى يصبح سيّد شباب أهل الجنّة؟! فهذه شهادة من رسول الله ﷺ على علوِّ مقام الحسن والحسين ﷺ ورفعتهما منزلتهما، وأنهما بلغا أسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في الإيمان والعمل الصالح والتقوى والورع وحُسن الخلق والجهاد والتضحية وكلّ ما يستلزمه دخول الجنّة، بل كلّ ما يستلزمه كون الإنسان سيِّداً لشباب أهل الجنّة.

وهذه رسالة من رسول الله ﷺ للأمة الإسلامية، كي تعرف منزلة هاتين الشخصيتين العظيمتين ومقام هذين السيّدَيْن الجليلَيْن، وتعرف وظيفتهما تجاههما من الحب والمودة والاتباع والنصرة والطاعة، لأنّ طريقهما هو طريق الجنّة، واتباعهما في سلوكهما ومسيرهما ومواقفهما وجهادهما وكلّ ما يقومان به هو الموصل إلى الجنّة، إذ هما سيِّدا شباب أهل الجنّة.

(1) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج 50، ص 81.

هذان هما الحسن والحسين عليهما السلام، وهكذا قدّمهما لنا رسول الله ﷺ وعرّفنا عليهما. وقد وصل إلينا كلّ هذا بعد مرور ألف وأربعمائة سنة، على الرغم من كلّ ما جرى في تاريخ الإسلام، وكلّ ما وقع من تحريف وتبديل وتغيير ودسّ، وكلّ ما مرّ به أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكلّ حروب بني أميّة والعبّاس عليهم. كلّ هذه العبارات نقلتها لنا كتب الشيعة والسنة، وفيها عرفنا رسول الله ﷺ على هذين الإمامين، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، وهو المؤتمن على دين الله في حياته، بل وبعد رحيله أيضًا، وهو الذي يحمل همّ أمته حتّى يوم القيامة.

نكتفي بهذا المقدار من التعرّف على شخصيّة الإمام الحسن عليه السلام كما بيّنها لنا رسول الله ﷺ في قوله وعمله، وفي ضمنه نكون قد تعرّفنا على شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام أيضًا، إذ وجدناهما مقترنين على الدوام ولا يفترقان. وفي ما يأتي من مباحث سوف نتحدّث عن جهاد هذين الإمامين العظيمين ودفاعهما عن الأمة وفضلهما على الإسلام والمسلمين والأمة الإسلاميّة إلى يوم القيامة.

الفصل الرابع

جذور المعركة وخلفيتها

الليلة السابعة من شهر محرم 1442 هـ
(آب 2020 م)



في هذه المحاضرة، سوف نواصل الحديث عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام. وكما ذكرنا سابقًا، فإنَّ الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام كانا معًا منذ بداية الطريق في حياة رسول الله ﷺ، وبقيًا معًا بعد وفاته ومع أبيهما أمير المؤمنين عليه السلام وثبتا معه في كلِّ مواقفه وحركاته وسكناته، إيمانًا منهما بإمامته وولايته وعصمته، والتزامًا منهما بما سمعاه من رسول الله ﷺ في حقِّ أبيهما، وما شهداه بأعينهما في مواطن كثيرة على مدى مراحل الدعوة النبويَّة، ومن أهمِّها واقعة الغدير، فلازمه سلماً وحرِّباً وقولاً وعملاً، ووقفًا إلى جانبه في كلِّ المواقف الصعبة والجيَّهات التي حارب فيها والمعارك التي خاضها، يأتهمران بأمره وينتهيان بنهيهِه، بل كانا أطوع له من بنانه.

مرحلة إمامة الإمام الحسن عليه السلام

على الرغم من أنَّ مرحلة حياة الإمام الحسن عليه السلام مع أبيه أمير المؤمنين عليه السلام كانت مليئةً بالأحداث والتفاصيل المهمَّة، إلَّا أنَّنا مراعاةً للاختصار لن ندخل في تفاصيلها، بل سوف نكتفي بما تحدثنا عنه في الفقرة السابقة، وننتقل إلى المرحلة الأساسيَّة

من حياة الإمام الحسن عليه السلام، والتي بدأت بعد شهادة أبيه في شهر رمضان من العام 40هـ حيث تولّى الإمام عليه السلام مسؤولية الإمامة وبويعَ للخلافة فأصبح خليفة المسلمين. ومنذ الساعات الأولى من تولّيه هذه المسؤولية، كانت أمام الإمام عليه السلام مهام محدّدة ينبغي أن يباشرها، ومنها مهام صعبة وحسّاسة، وسوف نذكر في ما يلي أهمّ هذه المهام بحسب الترتيب الزمني، لا بحسب الأهميّة.

• المهمة الأولى: إنزال القصاص بقاتل أمير المؤمنين عليه السلام

أول مهمّة ألقيت على عاتق الإمام الحسن عليه السلام بعد شهادة أبيه عليه السلام هو إنزال القصاص العادل بقاتله، ونحن سوف نتعرّض لهذه المهمة لسببين:

السبب الأول: أنّ هذه المهمة شكّلت بداية خلافة الإمام الحسن عليه السلام، فمن الضروري أن نرى كيف تعامل الإمام عليه السلام مع أول مهام خلافته كي نتعلّم ونأخذ الدروس.

السبب الثاني: أنّ هذه الواقعة المنقولة في جميع الكتب التاريخية تبين لنا أنّ الحكومة والنظام الإسلاميين في ذلك الوقت كانا عبارة عن دولة قانون، لا دولة مزاج أو عصبية أو غضب أو انفعال، بل كانت الضوابط والأحكام الشرعية هي الحاكمة، وهذا هو معنى أن تكون الدولة إسلاميّة، أي أن تحكمها ضوابط وأحكام شرعية محدّدة وقوانين يجب العمل بها، كما أنّها في الوقت ذاته تعكس العدل والرحمة في الأحكام الإسلامية.

والقصّة كما نقلتها الكتب التاريخيّة كالتالي: عندما كان أمير المؤمنين عليه السلام يعاني ألم الجراح وينتظر ساعة لقاء الله سبحانه وتعالى كان يقول: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَلْفَيْنَكُمْ تَخَوْضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا، تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي»⁽¹⁾. فكان يذكرهم بهذا القانون الإلهي وبحكم الشرع والدين، مع أنّ الكلام هاهنا هو عن أشقى الأشقياء الذي قتل ابن عمّ رسول الله وأمير مؤمنين عليه السلام، ولكن مع ذلك نجد أمير المؤمنين عليه السلام يوصي بني عبد المطلب بأن لا يفعلوا، ولا يتملكهم الغضب، ولا يتجاوزوا حدود الله، فالقاتل فقط هو الذي ينبغي أن ينال العقاب والقصاص، فلا ينبغي الاعتداء على إخوته ولا أبيه ولا أمّه ولا عائلته ولا عشيرته ولا أصحابه، ولا أن يؤخذ أحد على الظنّ والشبهة. هذا هو القانون الإلهي والحدود الإلهيّة، وهي في الواقع مليئة بالدروس والعبر التي سوف نتحدّث عنها لاحقًا.

ثمّ يقول لهم: «انظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ صَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاصْرَبُوهُ صَرْبَةً بِصَرْبَةٍ»⁽²⁾. فلأنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد ضرب ضربة واحدة على رأسه بالسيف المسموم، فإنّه يأمر بني عبد المطلب بأن لا يضربوا قاتله إلا ضربة واحدة.

وفي نصّ آخر، يوصي أمير المؤمنين عليه السلام الإمام الحسن عليه السلام بأن يتعامل مع قاتله كالأسير، لأنّه صار أسيرًا عنده، وما أحوجا

(1) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج 42، ص 256.

(2) المصدر نفسه.

للاهتمام بمضامين هذه الوصية، لأنها تُعبر عن الإسلام المحمّدي الأصيل، إسلام الرحمة وإسلام الحزم الذي لا يجانب العدالة أبدًا. يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) لولده الحسن (عليه السلام): «يَا حَسَنُ، أَبْصِرُوا ضَارِبِي، أَطْعِمُوهُ مِنْ طَعَامِي وَأَسْقُوهُ مِنْ شَرَابِي، فَإِنْ عَشْتُ فَأَنَا أَوْلَى بِحَقِّي، وَإِنْ مِتُّ فَأَضْرِبُوهُ ضَرْبَةً، وَلَا تُثَلِّثُوا بِهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَالْمُثَلَّةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعُقُورِ»⁽¹⁾.

وفي نصٍّ أوسع يُخاطب أمير المؤمنين (عليه السلام) ولده الحسن (عليه السلام) بكلامٍ ينبغي أن يُكتب بهاء الذهب: «إِرْفُقْ يَا وَلَدِي بِأَسِيرِكَ وَارْحَمْهُ، وَأَحْسِنْ إِلَيْهِ وَأَشْفِقْ عَلَيْهِ، أَلَا تَرَى إِلَى عَيْنَيْهِ قَدْ طَارَتَا فِي أَمِّ رَأْسِهِ وَقَلْبُهُ يَرْجُفُ خَوْفًا وَرُعْبًا وَفَرَعًا»⁽²⁾. فهذا الشقي حينما أُمِسَّكَ به وأدرك أنه سيقتل وينال عقابه امتلاً قلبه رعباً وبان الفزع عليه، فدعا أمير المؤمنين (عليه السلام) ولده الحسن (عليه السلام) أن يرفق به ويحسن إليه، فأجابه الحسن (عليه السلام): «يَا أَبَاهُ، قَدْ قَتَلَكَ هَذَا اللَّعِينُ الْفَاجِرُ وَأَفْجَعَنَا فِيكَ وَأَنْتَ تَأْمُرُنَا بِالرَّفْقِ بِهِ؟!»، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): «نَعَمْ يَا بُنَيَّ، نَحْنُ أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَزْدَادُ عَلَى الذَّنْبِ إِلَيْنَا إِلَّا كَرَمًا وَعَفْوًا»⁽³⁾.

هذا هو أميرنا وإمامنا.

يظنّ بعض الناس أحياناً أنّ الصبر والعفو والكرم والتحمل أمورٌ خاطئة، ولكنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول لولده في حقّ قاتله: «نَحْنُ

(1) المالكي، علي بن محمّد، الفصول المهمّة، ج 1، ص 623.

(2) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج 42، ص 287.

(3) المصدر نفسه.

أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَزْدَادُ عَلَى الذَّنْبِ إِلَيْنَا إِلَّا كَرَمًا وَعَفْوًا، وَالرَّحْمَةُ وَالشَّفَقَةُ مِنْ شِمَتِنَا لَا مِنْ شِمَتِهِ، بِحَقِّي عَلَيْكَ فَأَطْعِمُهُ يَا بُنَيَّ مِمَّا تَأْكُلُهُ، وَإِسْقِهِ مِمَّا تَشْرَبُ، وَلَا تُقَيِّدْ لَهُ قَدَمًا، وَلَا تَغْلُ لَهُ يَدًا، فَإِنْ أَنَا مِتُّ فَأَقْتَصْ مِنْهُ بِأَنْ تَقْتُلَهُ وَتَضْرِبَهُ ضَرْبَةً وَاحِدَةً وَتُحْرِقَهُ بِالنَّارِ، وَلَا تَمَثِّلْ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **إِيَّاكُمْ وَالْمُثَلَّةَ وَلَوْ بِالْكَلبِ الْعَفُورِ**»⁽¹⁾.

هذه كانت أول حادثة واجهها الإمام الحسن (عليه السلام)، فعمل فيها بوصية أبيه (عليه السلام)، فقبل شهادة أمير المؤمنين (عليه السلام) تعامل الإمام الحسن (عليه السلام) مع ضارب أبيه كالأسير، مع أنه المرتكب لجريمة أمام مئات الشهود الذين كانوا في المسجد حين وقوع الحادثة، ثم بعد شهادة أمير المؤمنين (عليه السلام) اقتصر منه وعاقبه كما أوصاه والده، فقتله بضربة واحدة ولم يمثّل به.

والعبرة التي ينبغي أخذها من هذه الحادثة أنه في بعض الأحيان نجد البعض يدّعي وجود عادات عشائرية - والعشائر أكرم وأنبل من أن تقبل بمثل هذه العادات. مفادها أنه إذا قُتل أحد ما من أبناء العشيرة، فإنّ لعشيرته أن تقتل أباه وأخاه، بل وقد يعتدون على زوجته وأولاده ويهاجمون أهل بيته، أو يقتصّون من أحد أبناء عشيرته أو أقربائه، فقط لوجود صلة قرابة بينهم وبينه! ومن البين أنّ هذا العمل محرّم ويمثّل معصية كبيرة، بل لا يمكن لمن يدّعي أنه من شيعة علي بن أبي طالب (عليه السلام) أن يفعل مثل هذا

(1) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج 42، ص 287.

الأمر، بل عليه أن يخجل من أمير المؤمنين عليه السلام الذي لم يشغله ألم السيف المسموم عن أن يوصي أهل بيته وعشيرته وولده بأن يُحسنوا لقاتله الذي قتله في بيت الله أمام مئات الشهود، وأن يراعوا الضوابط الشرعية أثناء الاقتصاص منه. هذا درس عظيم لنا، فمن يدعي أنه من شيعة علي عليه السلام وأتباعه وأحبابه، فلا سبيل له سوى اتباع وصايا علي عليه السلام والافتداء به والعمل بأمره.

• المهمة الثانية: تجهيز أمير المؤمنين عليه السلام ودفنه

أما المهمة الثانية التي كان لا بد للإمام الحسن عليه السلام أن ينهض بها، فهي تجهيز أمير المؤمنين عليه السلام ودفنه سرًا، وهذه حادثة أخرى تحكي لنا عن غربة أهل البيت عليهم السلام ومظلوميّتهم. فتصوّروا أنّ خليفة المسلمين وحاكم البلاد الإسلامية يوصي أولاده بأن يدفنوه سرًا ويخفوا قبره ولا يُعلموا به أحدًا! وهذا حقًا أمر مؤلم، فبعدما حصل هذا الأمر مع السيّدة الزهراء عليها السلام، عاد وتكرّر مرّةً أخرى في التاريخ الإسلامي بعد ثلاثين سنة مع أمير المؤمنين عليه السلام.

وهنا كان المطلوب من الإمام الحسن عليه السلام أن يجد سبيلًا لتنفيذ وصية أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، ففي الكوفة التي كان يسكنها مئات الآلاف في ذلك الوقت، على ما يُقال، ووسط اجتماع الناس واحتشادهم لتشيع أمير المؤمنين عليه السلام، كيف يمكن دفن الجثمان سرًا وإخفاء مكان الدفن؟! هنا ينقل التاريخ أنّهم عمدوا إلى تجهيز جنائز متعدّدة ووجّهوها إلى أماكن مختلفة، ثمّ في وقت معيّن وبعيدًا عن الأنظار أخذوا جثمان أمير المؤمنين إلى

ظهر الكوفة- وهي التي تُعرَف بالنجف الأشرف في وقتنا- ودفنوا أمير المؤمنين عليه السلام هناك وأخفوا قبره الشريف. وقد بقي قبر أمير المؤمنين عليه السلام مخفياً وغير معروفٍ للناس حتّى زمن بني العبّاس، وقصّة إظهار القبر معروفة ومشهورة.

وفي جميع الأحوال، فقد واجه الإمام الحسن عليه السلام بعد شهادة أبيه مهمّةً حسّاسةً وصعبةً تقضي بتنفيذ وصيّته ودفنه سرّاً، وقد أنجز عليه السلام هذه الوصيّة.

• المهمة الثالثة: متابعة قيادة المعركة بعد أمير

المؤمنين عليهم السلام

في الفترة التي أصبح فيها الإمام الحسن عليه السلام خليفةً وحاكماً للمسلمين، كانت الكوفة تعيش حالةً من التعبئة العامّة والاستنفار كان قد أعلنها أمير المؤمنين عليه السلام لمواجهة معاوية، حيث بدأ عليه السلام بتجهيز جيش للسير لملاقاة جيش المعاوية، والذي كان في الجهة المقابلة قد جهّز جيشاً وسار به من الشام باتجاه العراق. إذن، تسلّم الإمام الحسن عليه السلام زمام حكم البلاد الإسلاميّة في مرحلةٍ عنوانها: إعداد الجيوش والتعبئة العامّة وجمع القبائل. وهنا تلزم الإشارة إلى أنّ طبيعة الجيوش في ذلك الوقت كانت مختلفةً عمّا هي عليه في أيّامنا هذه. ففي أيّامنا كلّ دولةٍ لها جيشها النظامي وجنودها الذين تُصرّف لهم رواتب من قبل الدولة، وفي حال نشوب أيّ حربٍ أو حصول أيّ اعتداءٍ فإنّ الجيش يكون على جهوزيّة تامّة، ثمّ إذا احتاجت المعركة مقاتلين إضافيين

يتمّ استدعاء جنود الاحتياط والمتطوّعين. ولكن في ذلك الوقت كان الأمر مختلفًا، إذ إنه وإن كان ثمة جيش نظامي تابع للدولة، إلا أنه يكون من ناحية العدد محدودًا، حيث كان الاعتماد في الغالب على الجنود المتطوّعين الذين تأتي بهم القبائل والعشائر، فيلتحقون بالمعسكر الذي يُعلن عنه من قبل الدولة.

إذن، فالإمام الحسن عليه السلام أعلن، منذ الساعات الأولى من بيعته، وفي الخطبة الأولى التي ألقاها بعد تسلّمه الحكم، وبوضوح كامل، أنّه سيمضي للمعركة والمواجهة مع معاوية، والتي كان قد أعدّ لها أمير المؤمنين عليه السلام.

فبعد معركة صفّين وخديعة التحكيم، ومعركة النهروان ومواجهة الخوارج، عاد أمير المؤمنين إلى الكوفة وبدأ العمل على تحضير القوّات المقاتلة من جديد للذهاب وحسم المعركة مع معاوية، إلّا أنّه استشهد قبل تحقيق هذا الأمر، ولذلك فإنّ الإمام الحسن عليه السلام كان منذ خطابه الأوّل عليه السلام واضحًا مع الناس، وبيّن لهم أنّه مُقدم على إكمال ما بدأه أمير المؤمنين عليه السلام ومتّجه للمواجهة مع معاوية.

وبالفعل، اجتمعت القبائل وأعلنت استعدادها لخوض هذه المواجهة. والسّرّ في ذلك يرجع إلى أنّ شهادة أمير المؤمنين عليه السلام بتلك الطريقة الظالمة سبّبت تفاعلًا عاطفيًا كبيرًا لدى العشائر والقبائل، ولذلك حصل إقبال كبير للغاية على جيش الإمام الحسن عليه السلام، خلافاً لما كان الحال عليه في الأشهر والأسابيع

الأخيرة من حياة أمير المؤمنين عليه السلام، والتي اتّسمت بالتخاذل والتقاعد في التجهيز والإعداد للمواجهة. وهذا ما كان يعبر عنه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبه التي كان يلقيها في مسجد الكوفة، حيث كان يُفصح عن تألّمه الشديد من تخاذلهم وتخليهم عن تحمّل المسؤولية، حتّى كان يخاطبهم قائلاً: «لَقَدْ مَلَأْتُمْ قُلُوبِي قَيْحًا، وَشَحَنْتُمْ صُدْرِي غَيْظًا»⁽¹⁾، ويذمّهم بقوله: «أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمُ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ [...] تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ حَيْدِي حَيَادٍ، مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ وَلَا اسْتَرَاخَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ، أَعَالِيلُ بِأَصَائِلِ دِفَاعِ ذِي الدَّيْنِ الْمَطُولِ، لَا يَمْتَنِعُ الضِّيمَ الدَّلِيلُ وَلَا يُدْرِكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ»⁽²⁾.

ولكن عندما استشهد أمير المؤمنين عليه السلام بتلك الطريقة تغيّر حال الناس، وأثّرت عاطفتهم وحماستهم، فتفاعلوا بشكل كبير والتحق عشرات الآلاف منهم بجيش الإمام الحسن عليه السلام. حينئذٍ شكّل الإمام عليه السلام قوّةً من الجنود قوامها عشرة آلاف مقاتل، وعيّن عبید الله بن العبّاس بن عبد المطلب قائداً لهم، وجعل قيس بن سعد بن عبادّة نائباً له، فكانت هذه طليعة الجيش التي ستمضي في البداية لملاقاة جيش معاوية، على أن تلحق بقیّة القوّات بقوّة الطليعة لخوض الحرب القادمة.

(1) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 2، ص 75.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 74.

• مرحلة ربط النزاع

هذه المرحلة من حياة الإمام الحسن عليه السلام تُعدّ الأكثر حساسيةً وخطورة، بل هي العنوان الأبرز في حياته المباركة. فهذه المعركة وهذه المواجهة وهذه الظروف التي عاشها الإمام الحسن عليه السلام مستكملًا ما بدأه أمير المؤمنين عليه السلام، وما ترتّب على هذه المواجهة من نتائج عُرفت في ما بعد بصلح الإمام الحسن، والذي لم يكن في واقع الأمر صلحًا، بل كان أشبه بوقف إطلاق النار أو ربط النزاع، كلّ هذا شكّل المرحلة الأهم والأبرز في حياة الإمام عليه السلام.

فكما هو معلوم، تبرز في حياة كلّ إمام من الأئمة عليهم السلام حادثة أو مرحلة معيّنة تكون هي العنوان الأساس والعريض لحياة هذا الإمام. فعلى سبيل المثال، عاش الإمام الحسين عليه السلام سبعًا وخمسين سنةً أو ثمانٍ وخمسين سنةً على اختلاف الأقوال، بل ذهب البعض إلى أنّه استشهد في عمر التاسعة والخمسين، ولكن مع ذلك فإنّ المرحلة الأبرز في حياته عليه السلام كانت واقعة كربلاء وما سبقها من أحداث. وكذلك الحال في حياة الإمام الحسن عليه السلام وسيرته، فإنّ هذه المواجهة وما تبعها من صلحٍ تمثّل المرحلة الأبرز، والتي كثر النقاش حولها على طول التاريخ الإسلامي، من أجل فهمها وفهم موقف الإمام الحسن عليه السلام وفهم الدور الذي أدّاه.

المعركة الدائمة بين البيت الهاشمي والبيت السفيفاني

من أجل فهم هذه المرحلة من سيرة الإمام الحسن عليه السلام، ومن أجل فهم هذه الأحداث التي وقعت وخلفياتها وأهدافها وتداعياتها وصحة موقف الإمام عليه السلام وخطورته وعظمته، لا بد لنا من تسليط الضوء على أساس المواجهة وجذورها، فهذه المواجهة لم تبدأ في حياة الإمام الحسن عليه السلام، إنما بدأت مع بداية البعثة النبوية بين البيت الهاشمي والبيت السفيفاني، ثم استمرت في عهد أمير المؤمنين عليه السلام وحربه مع معاوية، مروراً بمواجهة الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية، وصولاً إلى ثورة الإمام الحسين عليه السلام في وجه يزيد، والتي أفضت إلى واقعة كربلاء.

ثم إنَّ الحديث عن هذه المعركة التاريخية المهمة جداً ليس رجوعاً إلى الماضي فقط، بل هو تعرّف على التاريخ من أجل أخذ التجربة والعبر للمستقبل. فنحن سوف نستفيد من هذه القضية في المستقبل، لأنَّ المعركة الحاسمة والنهائية في آخر الزمان، والتي سوف تفتح الباب أمام دولة العدل الإلهي على الأرض، هي معركة المهدي عليه السلام مع السفيفاني الذي هو من أحفاد أبي سفيفان وذريّته. ومن هنا، فإنَّ الوقوف على هذه المواجهة التاريخية من شأنه أن يساعدنا كثيراً على فهم ما جرى مع الإمام الحسن عليه السلام ثم مع الإمام الحسين عليه السلام والإمام زين العابدين عليه السلام، وصولاً إلى ما سوف يحدث في زمن المهدي عليه السلام. إذن، جذر المسألة يرجع إلى

المواجهة بين البيت الهاشمي من جهة والبيت السفيفاني وآل أبي سفيفان من جهة أخرى.

بنو أمية هم فرع وفخذ من قبيلة قريش، وتنتمي إليهم بيوت كثيرة ترجع بأجمعها إلى جدّ واحد هو أمية، كالبيت السفيفاني وزعيمه أبو سفيفان ثمّ يتسلسل مع أولاده وأحفاده، والبيت المرواني وزعيمه مروان بن الحكم ثمّ يتسلسل مع أولاده وأحفاده، ولكنّ الأصل والأساس في المشروع الأموي والحركة الأموية هو البيت السفيفاني.

وعند الحديث عن أيّ مواجهة ومعركة بين طرفين، لا بدّ من معرفة كلّ طرفٍ من طرفيّ المواجهة من أجل التمكن من فهم هذه المواجهة، فإذا كنّا في حربٍ مع جهةٍ ما، فلا بدّ لنا من معرفة أنفسنا وحلفائنا، ومعرفة عدوّنا وحلفائه حتّى نفهم طبيعة هذه الحرب. وفي المحصلة، ما دام طرفا أيّ مواجهة غير معروفين، فلا يمكن الوصول إلى تحليل صحيح لهذه المواجهة ولا اتّخاذ الموقف المناسب. ومن هنا كان لا بدّ من التعرّف على البيت السفيفاني وزعيمه أبي سفيفان، حتّى نعرف من الذي واجه الحركة النبوية، كي نستفيد من ذلك للمستقبل.

• أولاً: مع رسول الله ﷺ

كان رأس البيت السفيفاني وأساسه هو أبو سفيفان، وقد بدأ المشروع الأموي السفيفاني منذ بداية الدعوة الإسلامية وبعثة النبي ﷺ وشروع رسول الله ﷺ بدعوة الناس إلى الإسلام في مكّة المكرمة

بمواجهة الحركة النبوية بقيادة أبي سفيان. وهذا ثابتٌ في مختلف المصادر التاريخية، وقد أوردته كتب إخواننا أهل السنة أكثر من كتب الشيعة، لئلا يُقال إنَّ هذا افتراء من شيعة أهل البيت عليهم السلام على أبي سفيان والبيت السفيفاني، فإنَّ المصادر التاريخية تفيد أنَّ أبا سفيان، ومنذ بداية بعثة النبي ﷺ ودعوة الناس إلى التوحيد، كان في مقدِّمة الذين وقفوا بقوة في مواجهة الدعوة النبوية والدين الجديد. ففي كلِّ ما جرى على رسول الله ﷺ وأصحابه خلال ثلاث عشرة سنة في مكَّة، من تعذيب وتهجير ومصادرة للبيوت والأموال والقتل، كالذي حصل مع ياسر وسمية أول شهيدَين في الإسلام، مرورًا بالحصار القاسي في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنوات، وصولًا إلى الاتفاق مع كبار قريش لقتل رسول الله ﷺ في فراشه، والذي أفضى إلى هجرته بأمرٍ من الله تعالى، في كلِّ ذلك كان أبو سفيان أحد الرؤوس المدبِّرة والأسماء الأساسية رفقة أبي جهل وغيره.

ثمَّ بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، بقيت الحرب قائمةً على النبي ﷺ وصحابته والدين الجديد، وبقي أبو سفيان قائد هذه الحرب ورأس الحربة فيها، وهذا من مسلَّات التاريخ أيضًا. فإنَّ أشرس الحروب التي شُنَّت من قِبَل المشركين على الإسلام والمسلمين وأخطرها هي تلك التي قادها أبو سفيان وخاضها بنفسه، كمعركة أحد التي كادت أن تقضي على الدولة الإسلامية الفتية، حيث استشهد فيها عدد كبير من المسلمين، وعلى رأسهم الحمزة بن

عبد المطلب، وتفتتت جبهة المسلمين وبقي رسول الله ﷺ وحيداً مع قلة من المسلمين، وأصيب ﷺ وكسرت ربايته وكاد أن يقتل، وكل ذلك كان بقيادة من أبي سفيان.

كما أن من أخطر المعارك التي واجهها المسلمون في صدر الإسلام وفي حياة رسول الله ﷺ كانت معركة الخندق، والتي تُعرف أيضاً بمعركة الأحزاب، حينما جاء أبو سفيان بجميع تحالفاته القبليّة والعشائريّة في شبه الجزيرة العربيّة وتحالفاته مع اليهود في المدينة وخيبر، وبجيش جرّار وأعداد هائلة من المقاتلين، وحاصر المدينة مدّة طويلة من الزمن. وقد كان هذا الحصار مطبقاً وقاسياً إلى درجة أن رسول الله ﷺ وصحابته من المهاجرين والأنصار ونساءهم وأطفالهم كانوا في أغلب الأحيان لا يجدون ما يسدّ جوعهم، حتّى كان رسول الله ﷺ يشدّ على بطنه حجر المجاعة، ويبقى أحياناً ثلاثة أيّام لا تدخل جوفه كسرة صغيرة من الخبز! فمَن لم يقتل من المسلمين بالسيف كان المطلوب أن يقضي جوعاً بفعل حصار أبي سفيان. وقد استمرّ حال المسلمين على هذا النحو من الجوع والحصار حتّى وقعت المعركة مع عمرو بن عبد ودّ العامري، حيث عبر عليّ بن أبي طالب عليه السلام الخندق وبرز له وصرعه بضربته التاريخيّة، فهُزم الأحزاب في تلك المعركة وبعث الله عليهم ريحاً شديداً وأنزل النصر على المسلمين وكفى المؤمنين القتال، ولكن بعد ماذا؟ بعد مدّة من الصبر والجوع والحصار والخوف، حتّى قال الله تبارك وتعالى حينما ذكر معركة الخندق

في كتابه: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (١٥) هُنَالِكَ
أَبْتَلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (١). فمن شدة قسوة الحصار
والمعركة تزعزع إيمان بعض المسلمين وتزلزل.

وفي المحصلة، فأخطر المعارك التي شنها المشركون ضد الدين
الإسلامي في حياة رسول الله ﷺ كان يقودها ويتزعمها أبو
سفيان، وهذا يُعدّ من المسلّمات التاريخية. وقد استمرّ الحال على
هذا النحو وصولاً إلى فتح مكة حين استسلم المشركون واعترفوا
بهزيمتهم أمام الدين الإسلامي. ولأنّ رسول الله ﷺ كان يريد بناء
مجتمع جديد في مكة مبني على الرحمة لا الانتقام، ولأنّه ﷺ
لم يكن ينظر إلى هؤلاء الذين حاربوه فحسب، بل كان ينظر في
ذريّاتهم والأجيال الآتية بعدهم، تعامل معهم برحمة واسعة،
وقال لهم: «ادْهَبُوا فَإِنَّتُمْ الطُّلُقَاءُ».

في ذلك اليوم، أسقط أبو سفيان في يده وأدرك أنّه هُزم وفقد
السيطرة على كلّ شيء، هو وزوجته هند وأولاده، فقرّر الدخول
في الإسلام ظاهراً. وتنقل بعض المصادر التاريخية أنّ معاوية، حتّى
في ذلك اليوم، كان معترضاً على أبيه لدخوله في الإسلام! ولكنّ أبا
سفيان كان قد أدرك الهزيمة التي لحقت به، فأعلن إسلامه مكرهاً
بعد أن انعدمت الخيارات أمامه. ولكن، هل انتهت المعركة؟ كلا،
بل استمرّت ولكن تغيّر أسلوبها، وباتت معركةً من داخل المجتمع

(1) سورة الأحزاب، الآيتان 10 و11.

الإسلامي بعدما كانت معركةً من خارجه، أي إنَّ أبا سفيان بدخوله في الإسلام قد نقل معركته ضدَّ الإسلام إلى داخل الجماعة المسلمة والمؤمنة برسول الله ﷺ. إذ في ذلك الوقت، كان المرء بمجرّد قوله: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله» يصير مسلمًا وجزءًا من الجماعة المسلمة والمجتمع الإسلامي، له ما لهم وعليه ما عليهم، فلا توجد دائرة نفوس ولا أحوال شخصيّة ولا بطاقة هويّة ولا غير ذلك، بل نطق هاتين الكلمتين يكفي لصيرورة الشخص فردًا من أفراد المجتمع الإسلامي، وهذا ما سعى أبو سفيان للاستفادة منه في استكمال حربه على الإسلام.

ونذكر في ما يلي شاهدًا تاريخيًا على ذلك، فبعد فتح مكّة، وتحديدًا في العام 9هـ، جهّز رسول الله ﷺ جيشًا وخرج به إلى غزوة تبوك. وتبوك مدينة معروفة اليوم تقع في الحجاز على مقربة من الأردن، وكانت في ذلك الوقت تحت سيطرة الروم، فخرج إليهم رسول الله ﷺ بجيشٍ كبيرٍ وخاض معركةً معهم. وقد كان أبو سفيان وأولاده وغيرهم من الطلقاء يشاركون في غزوات رسول الله ﷺ بعد فتح مكّة بحكم دخولهم في الإسلام. تذكر المصادر التاريخية أنّه أثناء عودة رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، وحينما وصل ليلاً إلى منطقة فيها وادٍ وتلّة كبيرة مطلّة عليه يُقال لها العقبة. والتي عُرفت الحادثة بعد ذلك باسمها، فباتت تُسمّى حادثة العقبة، مشى المسلمون في بطن الوادي بينما سلك رسول الله ﷺ طريقه من فوق التلّة ومعه اثنتان من أصحابه هما حذيفة بن اليمان

وعُمَار بن ياسر، فاتَّفَق مجموعة من الأشخاص يتراوح عددهم بين العشرة والخمسة عشر، على اختلاف المصادر التاريخية، على أن ينْفَرُوا ناقة رسول الله ﷺ فيسقط في الوادي ويُقْتَل، ولكنَّ الله تعالى أخبر رسوله ﷺ بمؤامرة هؤلاء، فاتَّخَذ الإجراءات بحيث لا يُوَدِّي تنفير الناقة إلى سقوطه في الوادي.

هذه الحادثة المعروفة تُعَدُّ من مسلَّمات التاريخ الإسلامي، إلَّا أنَّ النقاش هو في أنَّه: من هم هؤلاء الذين تَأَمَّرُوا على رسول الله ﷺ ليقتلوه؟ بعض هؤلاء أفصح رسول الله ﷺ عن أسمائهم وَمَتَّ محاسبتهم، أمَّا البقية فقد تمَّ إخفاء أسمائهم لحكمةٍ من رسول الله ﷺ، وذلك لأنَّ المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت كان لا يزال فتياً هشاً، والناس دخلت في الإسلام حديثاً، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد أن تحدث صراعات داخلية تؤدِّي لشقِّ عصا المسلمين، فلم يكشف عن أسماء هؤلاء أمام الجميع، ولكنَّه أعلم حذيفة بن اليمان بها، ولذلك كان حذيفة يُسأل دائماً عن أسمائهم.

وبعد مضيَّ سنوات طويلة على وفاة رسول الله ﷺ اختلفت ظروف المجتمع الإسلامي، وبات المسلمون يتداولون ببعض هذه الأسماء، وقد ذكرت المصادر التاريخية أنَّ أحد هؤلاء المتأمرين على رسول الله ﷺ لقتله في حادثة العقبة كان أبو سفيان، وأضافت بعض المصادر إلى أبي سفيان ابنه معاوية، بل وزادت عليهم بعض المصادر الأخرى ابنًا آخر لأبي سفيان هو عتبة بن أبي سفيان. وهذا يشهد على أنَّ أبا سفيان بدأ فور إعلان دخوله الإسلام بالتربُّص

برسول الله ﷺ والتأمر عليه وعلى الدين الإسلامي من الداخل. هذا الرجل لم يكن يرى في الإسلام دينًا ولا رسالة ولا نبوة، بل كان يراه مُلكًا وسلطانًا، ومما يشهد على ذلك ما نُقل في المصادر التاريخية من قوله للعبّاس بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ بعد فتح مكة: «لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْغَدَاةَ عَظِيمًا!»⁽¹⁾.

• ثانيًا: مع أمير المؤمنين عليه السلام

بعد وفاة رسول الله ﷺ استمرّ أبو سفيان في سعيه لتحقيق مشروعه المعادي للإسلام من داخل الأمة الإسلامية. فبعدما قاد الحرب على الإسلام من الخارج على مدى واحدٍ وعشرين عامًا منذ بدء الدعوة النبوية حتّى فتح مكة عام 8هـ، تبدّلت خطّته بعد فتح مكة واستسلامه أمام الدين الإسلامي، فبدأ يتحرّج الفرص للقيام بكلّ ما يسعه القيام به لإضعاف الأمة الإسلامية والدين الإسلامي، بشرط ألا يوقعه ذلك في أيّ خطر، وهو الأمر الذي استمرّ بعد وفاة رسول الله ﷺ عام 11هـ فقد عمل أبو سفيان بعد وفاة رسول الله ﷺ على إيقاع الفتنة بين المسلمين وتحريضهم على بعضهم، بالإضافة إلى السعي لاختراق المنظومة الحاكمة في الدولة الإسلامية، فبدأ هو ومن معه من بني أمية بالتسلّق للإمساك بأمور الدولة والأمة لإعادتها إلى الجاهليّة، وهو

(1) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج 4، ص 332.

ما تؤكّده مختلف الشواهد التاريخية، والتي سوف نذكر في ما يلي بعضاً منها.

من هذه الشواهد التاريخية ما ورد في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير وتاريخ الطبري، أيّ إنّ هذه الحادثة قد نقلتها كتب السنّة لا الشيعة. تدور وقائع هذه الحادثة بعد وفاة رسول الله ﷺ في المدينة ومبايعة أبي بكر للخلافة ووقوع الخلاف المعروف مع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، والذي تذكره كافّة المصادر التاريخية الإسلاميّة. ولكي نفهم هذه الحادثة، لا بدّ لنا من فهم التركيبة القبليّة لقريش، فهي عبارة عن قبيلة كبرى تجمع مجموعة قبائل أو أفخاذ من قبيل بني هاشم وبني أميّة وبني مخزوم وبني تيم وبني عدي وغيرهم. وقد كانت هذه التركيبة القبليّة شبيهةً بالتركيبة الطائفيّة الموجودة في لبنان، بحيث كانت تُصنّف القبائل ضمن مراتب ودرجات بحسب ما لها من قوّة وثروة وما شابه ذلك، فكانت القبائل القويّة والغنيّة تحوز مرتبةً أرفع من القبائل الضعيفة والفقيرة، فكان بنو أميّة وبنو مخزوم يرون أنفسهم أرفع شأنًا من بقيّة القبائل، كما وكانوا في منافسةٍ مع بني هاشم.

إذا فهمنا هذه التركيبة القبليّة لقريش، ندخل إلى بيان هذه الحادثة التي تنقلها كتب التاريخ. حينما توفّي رسول الله ﷺ كان أبو سفيان خارج المدينة، وحينما رجع وجد الناس قد بايعوا أبا بكرٍ للخلافة، واطّلع على الخلاف الدائر بين أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأبي بكر، فأراد أن يستغلّ هذا الظرف من أجل شقّ عصا المسلمين.

ونصّ الحادثة كما نقلته المصادر التاريخيّة هو التالي: لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقول: «والله إنّي لأرى عجاجة لا يطفئها إلّا الدم!»، فهو من أوّل الطريق لم يكن مبتغاه سوى تقاتل المسلمين وسفك دماء بعضهم. ثمّ قال: «يا آل عبد مناف - وعبد مناف هو الجدّ الجامع بين بني أميّة وبني هاشم. فيمّ أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذّلان علي والعباس؟»، فهو رأى في موقف أمير المؤمنين (عليه السلام) وعمّه العباس موقفًا ذليلًا ورأهما ذليّلين مستضعفين، ظانًا أنّه بذلك يستثيرهما فيقع القتال بين المسلمين. ثمّ قال: «ما بال هذا الأمر في أقلّ حي من قريش؟»، فهو بنظرته القبليّة يرى أنّ قبيلة بني تيمّ التي ينتمي إليها أبو بكر أقلّ شأنًا وقوّةً ومالًا من بني أميّة وبني هاشم، فيتعجّب من وصول أمر الخلافة إليهم! ثمّ خاطب أمير المؤمنين (عليه السلام) قائلاً: «أبا الحسن، ابسط يدك حتّى أبايعك، فوالله لئن شئت لأملأنّها عليه - أي على أبي بكر - خيلًا ورجالًا»، إلّا أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) أبى ذلك، فما كان من أبي سفيان إلّا أن تمثّل ببيت من الشعر الجاهلي لاستثارتها، فزجره أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال له: «إنّك والله ما أردت بهذا إلّا الفتنة، وإنّك والله طالما بغيت الإسلام شرًّا! لا حاجة لنا في نصيحتك»⁽¹⁾.

فعلى الرغم من حاجة أمير المؤمنين (عليه السلام) في مثل ذلك الظرف للأنصار والأعوان لاستعادة حقّه في الخلافة، إلّا أنّه رفض نصره

(1) الطبري، ابن جرير، تاريخ الطبري، ج 2، ص 449.

أبي سفيان وبيعت له، مع أن بني أمية لم يكونوا قلة في قريش، بل كانوا ذوي عديد وعدة ومال، وكان من شأن نصرتهم لأمر المؤمنين ﷺ أن تغير الأحوال، إلا أن أمير المؤمنين ﷺ كان يعرف أن هذه النصر ما هي إلا نتيجة العصبية القبلية، وليست سوى مؤامرة الهدف منها شق عصا المسلمين وإيقاع الفتنة بينهم وسفك الدماء والقضاء على الإسلام.

ومن الشواهد التاريخية على ما كان يحمله أبو سفيان من عداة للإسلام حتى بعد دخوله فيه، ما نُقل في الكتب التاريخية من أنه في زمن خلافة عثمان ذهب إلى جبل أحد، وانطلق إلى قبر الحمزة، فركله برجله وقال: «إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا يتلاعبون به»⁽¹⁾. فكأنه يقول لشهداء أحد: إن ما قاتلناكم عليه وقتلناكم عليه، ها هو في أيدي غلماننا يتلاعبون به، فهاهنا قاتلنا محمدًا وقتلنا أصحابه، وكل ذلك كان لأجل الملك والسلطان، فلا نبوة ولا إسلام، وها هو هذا الملك قد أصبح لعبة في أيدينا بعد قرابة العشرين عامًا من وفاة محمد!

كما وأوردت المصادر التاريخية كلامًا خطيرًا لأبي سفيان قاله عندما بويع عثمان بن عفان للخلافة، وهو نص ذكر في كتب إخواننا أهل السنة، وسوف أذكر لاحقًا تعليقًا لبعض كبار علماء أهل السنة القدامى عليه. وقد ورد في ذلك نصين اثنين إما أن يكونا مرتبطين بالحادثة نفسها أو أن الحادثة تكررت مرتين. مفاد النص الأول

(1) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 16، ص 136.

أنَّه حينما بُويع عثمان حضر في بيته ورَحِلَه فدخل عليه بنو أمية ومعهم أبو سفيان حتَّى امتلأت بهم الدار فأغلقوها عليهم، فسأل أبو سفيان بني أمية: «أعندكم أحد من غيركم؟» لأنَّه في ذلك الوقت كان قد أصيب بالعمى، فأجابوا: «لا»، فقال لهم: «يا بني أمية تلقَّفوها تلقَّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان - وهو ما حلف بالله تعالى بل بآلهة المشركين - ما من عذاب ولا حساب ولا جنة ولا نار ولا بعث ولا قيامة»، فانتهره عثمان وساءه ما قال، وأمر بإخراجه من المنزل⁽¹⁾.

أمَّا النصّ الثاني والذي يشبه النصّ الأوّل مع تفاوتٍ يسير، فمفاده أنَّ أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه فقال: «قد صارت إليك بعد تيم وعدي - أي بعد أبي بكر وعمر، إذ الأوّل من قبيلة تيم والثاني من قبيلة عدي - فأدِرْها كالكرة - أي اجعل الخلافة تدور بين بني أمية - واجعل أوتادها بني أمية فإنَّما هو المُلْك ولا أدري ما جنة ولا نار». فالمسألة عنده مسألة مُلْك وسلطان وجاه، أمَّا الدين والإسلام والرسالة والآخرة والرسول فكلّ هذا لا يعني شيئاً بالنسبة إليه، بل إنّما هو المُلْك! فصاح به عثمان: «قم عني فَعَلَ اللهُ بك ما فَعَلَ»⁽²⁾. هذا النصّ ورد في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر، وفي رواية أخرى: دخل أبو سفيان على عثمان بعد أن كُفَّ بصره وقال: «هل علينا من عين؟»، أي هل

(1) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 9، ص 53.

(2) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب، ج 4، ص 1679.

هناك أحد يرانا، فأجابه عثمان: «لا»، فقال له: «يا عثمان إنَّ الأمر أمر عالميَّة والمُلْك ملك جاهليَّة، فاجعل أوتاد الأرض بني أميَّة»⁽¹⁾. هذا هو أبو سفيان الذي بقي إلى آخر لحظةٍ من لحظات حياته يتحيَّن الفرص لتوجيه ضربةٍ للإسلام والوصول إلى المُلْك، ولذلك كان فَرِحًا جدًّا حينما وُلِّي ابنه يزيد بن أبي سفيان على بلاد الشام. ورغم أنَّ فرحه هذا لم يدم طويلًا إذ ما لبث أن توفِّي ابنه يزيد، ولكن أُعيدَ مباشرةً تعيين ابنه الآخر معاوية واليًّا على الشام، فرأى أبو سفيان في ذلك فرصةً لإحداث اختراقٍ كبيرٍ داخل الدولة الإسلاميَّة يمكن البناء عليه لتأسيس الدولة الأمويَّة في المستقبل.

وبهذا يمكن تلخيص سيرة أبي سفيان مع الدين الإسلامي، بدءًا بتعذيب المسلمين وقتلهم وشنُّ الحروب على الدولة الفتية، ثمَّ الدخول الظاهري في الإسلام ومحاولة قتل النبي ﷺ، إلى محاولة استغلال مسألة الخلافة لإشعال نار الفتنة والاقتتال الداخلي بعد وفاة رسول الله ﷺ، وصولًا إلى السعي لتلقُّف الخلافة كالكرة بين أيدي بني أميَّة والقول بأنَّه لا جنَّة ولا نار، إذ إنَّ المسألة مسألة مُلْك كملْك الجاهليَّة. وهذا ما يُعلِّق عليه بعض كبار علماء أهل السنَّة ويعتبرونه كفرًا صريحًا وارتدادًا عن الإسلام، وهو ما ينبغي أن يلتفت إليه بعض الذين يرون أبا سفيان من المسلمين بل المجاهدين في سبيل الله والإسلام!

(1) ابن حمدون، محمد بن الحسن، التذكرة الحمدونيَّة، ج 9، ص 171.

ثمّ بعد أبي سفيان انتقلت قيادة البيت السفياني والمشروع السفياني إلى معاوية، والذي منذ تعيينه والياً على الشام بدأ العمل على تأسيس قاعدة مُلكه وسلطانه في بلاد الشام. والشام آنذاك لم تكن تقتصر على دمشق الحاليّة، ولا على سوريا فقط، بل كانت بلاد الشام تشمل دول سوريا والأردن ولبنان وفلسطين الحاليّة، فكان معاوية والياً تامّ الصلاحيّات على كلّ هذه المساحة الشاسعة من الدولة الإسلاميّة، يفعل بها ما يشاء لسنوات طويلة.

وفي فترة ولايته على الشام، تمكّن معاوية من بناء قاعدة كبيرة ومهمّة، وأسس سلسلة من العلاقات الوثيقة مع القبائل والعشائر، فأقام علاقات مصاهرة معهم، وأنفق أموالاً طائلةً من بيت مال المسلمين اشترى فيها ذمم زعماء القبائل والعشائر. ولمّا كان الشعر في ذلك الزمان يمثّل أقوى وسيلة إعلاميّة، فقد عمد معاوية إلى شراء ذمم الشعراء أيضاً، بل ولم يسلم العلماء منه أيضاً، فدفع لهم الأموال وصيّهم علماء بلاطٍ عنده، حتّى استطاع السيطرة على كلّ أطراف المجتمع الشامي وتضليلهم وربطهم به وبالعائلة الأمويّة بواسطة الزور وتبديل الحقائق. وقد تمكّن معاوية بأساليب الكذب والاحتيال من إقناع أهل الشام بأنّه وعائلته هم الذين نصروا النبي ﷺ، مع أنّهم هم الذين حاربوه من أوّل دعوته حتّى وفاته، وقدّم نفسه بوصفه كاتب الوحي، مع أنّ ذلك خلاف الواقع، وما هو منقول في المصادر التاريخيّة هو أنّ النبي ﷺ دعاه ذات مرّة ليأتيه ويكتب له رسالةً لا وحيّاً فلم يأت، فأرسل إليه يدعوه مرّةً

أخرى فلم يأتِ أيضاً لانشغاله بالطعام، فدعا عليه رسول الله ﷺ قائلاً: «لا أشبع الله بطنه»، وهذه الحادثة مشهورة⁽¹⁾. ومع ذلك فقد استطاع معاوية أن يقدم نفسه ككاتبٍ لوحي النبي ﷺ ونسيبٍ له وخالٍ للمؤمنين وأثمه من صحابة رسول الله ﷺ ومن كان معه، فصدقه الناس في ذلك.

وفي المقابل، استطاع معاوية أن يخدع أهل الشام بتقديم علي بن أبي طالب عليه السلام كعدوٍ للإسلام، إلى درجة أن الجيش الذي كان يقاتل مع معاوية في صفين كان يعتقد أن علياً لا يصلي، ولذا تفاجأ أهل الشام حينما جاء علي عليه السلام وأصحابه لأداء الصلاة. فإلى هذا المستوى وصل الخداع والتضليل، وكل ما نشهده في أيامنا هذه من تزوير وتضليل، هو كالنقطة في بحر ما كان يمارسه معاوية في ذلك الزمان.

هكذا استطاع معاوية أن يجعل بلاد الشام في قبضته، وأن يبني قوةً كبيرةً وشبكةً من المصالح، وأن يربط الزعماء والشعراء والعلماء به وبعائلته، حتى بات الجميع يرى أن الإسلام هو معاوية، والدولة الإسلامية هي دولة معاوية، والخلافة الإسلامية هي خلافة معاوية. وحينما وقعت أحداث المدينة المنورة اعتراضاً على عثمان بن عفان، وتأجج الخلاف بين بعض الصحابة والأعيان ومن جاء من المسلمين من مختلف البلاد الإسلامية كمصر والكوفة والبصرة ومكة من جهة والخليفة الثالث من جهة أخرى، والتي

(1) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، الحديث 2604.

انتهت بسلسلةٍ من التطوّرات آخرها محاصرة بيت عثمان وقتله، كان عثمان على الدوام يرسل الرسائل إلى معاوية طالباً منه الدعم والمساندة، وقد كان لدى معاوية في الشام جيش جرّار قوامه عشرات الآلاف من المقاتلين يستطيع الوصول إلى المدينة في وقتٍ قصير، إلّا أنّه امتنع عن نصره الخليفة الذي ثبت له ولايته على الشام، فجهّز جيشاً وأمره بالتباطؤ في الحركة، حتّى قُتل عثمان فجأوه بقميصه وأصابه زوجته المقطوعة، فعلقها على باب المسجد الكبير في دمشق، ورفع شعار: «يا لثارات عثمان». وبعدما اجتمع الناس على أمير المؤمنين عليه السلام وبايعوه للخلافة، حمّل معاوية عليّاً عليه السلام مسؤولية قتل عثمان، ومن يومها باتت قصّة قميص عثمان مضرّباً للمثل ومن أشهر أحداث التاريخ الإسلامي.

في ذلك الوقت، قد كان أمير المؤمنين عليه السلام هو الخليفة الشرعي بلا نقاشٍ بين المسلمين، إذ إنّ خلافته هي خلافة شرعيّة سواء وفق المبنى الشيعي أو المبنى السني. أمّا على المبنى الشيعي فهو إمام منصوب من الله تعالى وهو وصيّ رسول الله ﷺ، وأمّا على المبنى السني فقد بايعه المسلمون الذين بايعوا الخلفاء الذين سبقوه. وقد أراد أمير المؤمنين عليه السلام أن يطالب معاوية وينزع منه ولاية الشام، لأنّه فاسد، سارق، قاتل، ظالم ولا يؤمّن على المسلمين في بلاد الشام، ولهذا أراد معاوية أن ينقل النزاع إلى مسألةٍ أخرى هي مسألة قتل عثمان، فكأنّه أراد أن يقول لأمر المؤمنين عليه السلام: قبل الكلام حول ولاية الشام، أنت مطالب بتحمل

مسؤولية قتل عثمان، وأن تعاقب من قتله ومن حاصر بيته ومن حُرِّض عليه. وقد أراد معاوية بذلك أن يُشعل نار فتنةٍ داخليةٍ في البلاد الإسلامية مع بداية خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، إذ إنَّ المبادرة للاقتصاص من قتلة عثمان ومعاقبتهم سوف يُدخل جمعًا كبيرًا من الصحابة والشخصيات البارزة في العالم الإسلامي وعددًا كبيرًا من المسلمين في دائرة الاتهام، ومثل هذا الأمر العظيم يتطلب ترويًا وهدوءًا وتحقيقًا لمعرفة القاتل ومحاسبته.

ومن الشواهد التي تؤكد أن مطالبة معاوية بدم عثمان لم تكن سوى حجةٍ سياسيةٍ هو أنَّ جميع المصادر التاريخية تذكر أنَّ عمرو بن العاص كان من أكبر المحرِّضين على محاصرة عثمان وقتله، لأنَّ عثمان عَزَله عن ولاية مصر فحقد عليه وقدم إلى المدينة وبدأ بتحريض أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وصحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار على عزل عثمان وقتله، ثمَّ أصبح لاحقًا يلتقي بالقوافل والركبان ويحرِّضها على عثمان، وعندما وصله نبأ مقتله أنشد شعرًا افتخر فيه بما حصل واعتبر ذلك أحد إنجازاته! فلو كان معاوية صادقًا في الاقتصاص من قتلة عثمان والمحرِّضين على قتله، فعمر بن العاص أولى بالقصاص من غيره، ومع ذلك اتَّخذه وزيرًا وحليفًا وصديقًا وفيًّا في حربه على أمير المؤمنين عليه السلام كما هو معروف في التاريخ.

وعلى أية حال، فقد وقعت بهذه الذريعة معركة صفين وما رافقها وتبعها من أحداث، وخرج معاوية على أمير المؤمنين عليه السلام،

ال خليفة الوحيد الذي لا نقاش بشأن شرعية خلافته في تاريخ الإسلام. فليس خفيًا أننا نحن المسلمين مختلفون بشأن شرعية بعض الخلفاء، ولكن هناك خليفة واحد لا خلاف بين المسلمين جميعًا سنة وشيعة بشأن خلافته، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد خرج معاوية على هذا الخليفة المجمع على شرعيته على اختلاف المباني العقائدية وقاتله لسنوات وجيش الجيوش لمواجهة وخاض الحروب ضده، كما وهاجم مكة والمدينة واليمن والحجاز وأطراف العراق، وقتل عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، وكل ذلك موثق في كتب التاريخ. وكان في ذلك كله يعتمد على سياسة التهيب، فيحرق المزارع والبيوت والمحاصيل، كما يفعل الأمريكيون والإسرائيليون في أيامنا، وكان هدفه الأساسي من كل مساعيه هو إسقاط الخليفة الشرعي والخلافة الشرعية، كي يتسلط على الملك ويعيد المسلمين إلى الجاهلية.

• مسار المشروع الأموي

هذا هو المسار الذي سلكه معاوية في حربه على الإسلام، وهو مسار تعطيل الأحكام الإلهية والرجوع إلى التقاليد والعادات الجاهلية وإحياء العصبية القبلية والعرقية. فأعاد إحياء مسألة أفضلية القرشي على غيره من العرب، وأفضلية العربي على الأعجمي، وسعى من موقع سلطته لتغيير كل ما أسسه رسول الله ﷺ وحفظه أصحابه من المهاجرين والأنصار، وعمل على

هَدَمَ كُلَّ أَهْدَافِ حُرُوبِهِمْ وَغَزَوَاتِهِمْ وَصَمُودَهُمْ وَمَوَاجِهَتِهِمْ،
وَتَجَاهَلَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ وَخَالَفَهَا بِشَكْلِ وَاضِحٍ وَعَلْنِي.
قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ إِنَّ كُلَّ مَا سَعَى إِلَيْهِ مَعَاوِيَةُ هُوَ الْمُلْكُ لَا أَكْثَرُ،
فَلَمْ تُصَوِّرُونَ الْأَمْرَ عَلَى أَنَّهُ اسْتَهْدَافٌ لِلْإِسْلَامِ وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟
وَالْجَوَابُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ يَتَّضِحُ حِينَمَا نَلْتَفِتُ إِلَى النُّصُوصِ
التَّارِيخِيَّةِ التَّالِيَةِ:

كَانَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ مِنْ أَصْحَابِ مَعَاوِيَةَ، وَكَانَ شَدِيدَ الدَّهَاءِ،
وَقَدْ عَيْنَهُ مَعَاوِيَةُ وَآلِيًّا عَلَى الْكُوفَةِ بَعْدَ صَلَاحِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وَيُنْقَلُ فِي الْمَصَادِرِ التَّارِيخِيَّةِ أَنَّهُ فِي آخِرِ سِنَوَاتِ مُلْكِ مَعَاوِيَةَ
وَاسْتَتَبَابِ الْأَمْرِ لَهُ، جَاءَ الْمَغِيرَةُ يَنْصَحُهُ قَائِلًا: «إِنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ سِنًا
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَوْ أَظْهَرْتَ عَدْلًا وَبَسَطْتَ خَيْرًا فَإِنَّكَ قَدْ كَبُرْتَ،
وَلَوْ نَظَرْتَ إِلَى إِخْوَتِكَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَوَصَلْتَ أَرْحَامَهُمْ فَوَاللَّهِ مَا
عِنْدَهُمْ الْيَوْمَ شَيْءٌ تَخَافُهُ»⁽¹⁾، فَهُوَ كَانَ يَنْصَحُهُ بِأَنْ يُخَفِّفَ عَنِ
بَنِي هَاشِمٍ وَيُحْسِنَ إِلَى النَّاسِ مَا دَامَتْ الْبِلَادُ كُلُّهَا قَدْ أَصْبَحَتْ
تَحْتَ سُلْطَتِهِ وَخَاضِعَةً لَهُ لِكَيْ يَبْقَى ذِكْرُهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. فَمَا كَانَ
جَوَابَ مَعَاوِيَةَ إِلَّا أَنْ قَالَ - وَهَذَا النَّصُّ ثَابِتٌ فِي الْكُتُبِ التَّارِيخِيَّةِ،
وَهُوَ يَبَيِّنُ مَشْكَلَةَ مَعَاوِيَةَ وَعَدُوَّهُ الْحَقِيقِي - : «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ،
مَلِكٌ أَخُو تَيْمٍ [أَيُّ أَبُو بَكْرٍ] فَعَدَلَ وَفَعَلَ مَا فَعَلَ، فَوَاللَّهِ مَا عَدَا
أَنْ هَلَكَ فَهَلْكَ ذِكْرُهُ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ مَلِكٌ أَخُو بَنِي
عَدِيٍّ [أَيُّ عُمَرَ] فَاجْتَهَدَ وَشَمَرَ عَشْرَ سِنِينَ، فَوَاللَّهِ مَا عَدَا أَنْ هَلَكَ

(1) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج 33، ص 169.

فَهَلْكَ ذِكْرُهُ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ عُمَرُ، ثُمَّ مَلَكَ عُثْمَانُ فَمَلَكَ رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي مِثْلِ نَسَبِهِ وَفَعَلَ مَا فَعَلَ وَعَمِلَ بِهِ مَا عَمِلَ، فَوَاللَّهِ مَا عَدَا أَنْ هَلَكَ فَهَلْكَ ذِكْرُهُ وَذِكْرُ مَا فَعَلَ بِهِ، وَإِنَّ أَخَا بَنِي هَاشِمٍ [أي رسول الله ﷺ] يُصَاحُ بِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَأَيُّ عَمَلٍ يَبْقَى بَعْدَ هَذَا لَا أُمَّ لَكَ، لَا وَاللَّهِ إِلَّا دَفَنًا دَفَنًا. فكل ما كان يريده معاوية هو دفن بني هاشم وذكرهم ونبئهم!

وتروى هذه الحادثة بنص آخر يختلف اختلافاً يسيراً عما أوردناه، وفيه يقول معاوية: «[...] وَإِنَّ ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ لَيُصَاحُ بِهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَأَيُّ عَمَلٍ يَبْقَى وَأَيُّ ذِكْرٍ يَدُومُ بَعْدَ هَذَا لَا أَبَا لَكَ، لَا وَاللَّهِ إِلَّا دَفَنًا دَفَنًا»⁽¹⁾. فوفقاً للنص الأول يُعَبَّرُ عن النبي ﷺ بـ«أَخَا بَنِي هَاشِمٍ» وهو فيه شيء من الاحترام لرسول الله، أما وفقاً لهذا النص فيُعَبَّرُ عن رسول الله ﷺ بـ«ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ»! وكبشة هو أحد أجداد النبي ﷺ، والعرب إذا أرادوا انتقاص أحد نسبوه إلى جدٍّ غامضٍ من أجداده، وقيل أيضاً أن كبشة هو زوج حليلة السعدية التي أرضعت رسول الله ﷺ في صغره. وفي جميع الأحوال، فكان يُلقَّب رسول الله ﷺ بابن أبي كبشة إذا أُريد الانتقاص منه!

ومن الأحداث التي نُقِلَتْ في كتاب أخبار الملوك أن معاوية سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال: «لِلَّهِ أَبُوكَ يَا

(1) (المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 5، ص 130).

بَنْ عَبْدِ اللَّهِ، [لم يقل: يا رسول الله، بل قال يا بن عبد الله] لَقَدْ كُنْتَ عَالِي الْهِمَّةِ، مَا رَضِيتَ لِنَفْسِكَ إِلَّا أَنْ يُقَرَّنَ اسْمُكَ بِاسْمِ رَبِّ الْعَالَمِينَ⁽¹⁾. فهو كان يرى أَنَّ الأذان وما فيه من الشهادة بَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رسول الله ما هو سوى اختراع من اختراعات النبي ﷺ أراد به أَنْ يُقَرَّنَ اسمه باسم الله!

وبعد معاوية، ورث يزيد قيادة مشروع البيت الأموي والسفياي، فتابع نهج أبيه وجدّه في حربه على الدين الإسلامي. والشواهد على ذلك في سيرته أكثر من أَنْ تُحصى وأوضح من أَنْ تُبَيَّنَ، فنكتفي بالإشارة إلى شيء يسيرٍ من هذه الشواهد التي تبين صراحةً أهداف البيت السفياي. جميعنا قرأ أو سمع بأبيات الشعر التي استشهد بها يزيد حينما أُحضرت إليه رؤوس شهداء كربلاء وسبائهم، وهي منقولة في أكثر كتب التاريخ، حيث استشهد بشعر لابن الزعبري قاله يوم أحد وتبنّى مضمونه، وكان من ضمن هذا الشعر بيت مفاده:

«لَعِبْتُ هَاشِمٌ بِالْمُلْكِ فَلَا

خَبْرٌ جَاءَ وَلَا وَحْيٌ نَزَلَ»⁽²⁾

وهو تصريح منه بإنكار النبوة والوحي! كما وكان من ضمن الأبيات التي استشهد بها بيتٌ للشاعر نفسه يقول فيه:

(1) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 10، ص 101.

(2) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج، ج 2، ص 34.

«لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا

جَزَعَ الْخَزْرَجَ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلِ»⁽¹⁾

فكّل ما ارتكب في كربلاء كان انتقاماً ممّن؟ كان انتقاماً من محمد ﷺ ومما حدث يوم بدر! وهو بعينه ما قاله أبو سفيان يوم معركة أحد، حيث قال: «يَوْمَ بَيْوَمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ»⁽²⁾. وهو ما كرّره والي الأمويين على المدينة حينما وصله خبر مقتل الحسين ﷺ، حيث خاطب النبي قائلًا: «يَا مُحَمَّدَ، يَوْمَ بَيْوَمِ بَدْرٍ»⁽³⁾. فهل كانت معركة بدر صراعًا داخليًا بين المسلمين؟ كلا، بل كانت معركة بين رسول الله ﷺ وصحابته من المهاجرين والأنصار من جهة، ومشركي قريش من جهة أخرى، ومع ذلك اعتبر الأمويون كربلاء ثأرًا ليوم بدر!

ولنختم كلامنا بتقديم تلخيص لما تقدّم فنقول: إنّ هذا البيت السفياني والمشروع السفياني لم يؤمن بالإسلام ولا بنبي الإسلام قط، ولم يعتقد بوحي ولا خبر ولا جنّة ولا نار ولا حساب ولا عقاب ولا قيامة، بل كان الأساس عنده هو الجاهليّة وعاداتها وتقاليدها وأفكارها وموازينها ومعاييرها. وقد هُزم هذا البيت في معركته العلنيّة مع الرسول ﷺ وصحابته وأهل بيته، فقرّر أن يخوض المعركة من داخل الجماعة المسلمة والمجتمع الإسلامي، ولم يتغيّر عدوّه في هذه المعركة، بل بقي عدوّه الإسلام والوحي والإيمان. فلم

(1) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج، ج 2، ص 34.

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، الحديث 3986.

(3) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 4، ص 72.

تكن معركته مجرد معركة سلطة ومال، ولم يكن الأمر مجرد صراع على الحكم كما يحاول البعض أن يُصوّره، بل كانت أبعاد الصراع أعمق من ذلك، فهذا الصراع كان صراعاً على الدين والوحي، بدأ مع أبي سفيان في حربه على رسول الله ﷺ، واستمرّ مع معاوية وحربه على أمير المؤمنين والحسن ﷺ، وصولاً إلى يزيد وحربه على الحسين ﷺ، وانتهاءً بالسفياني وحربه على المهدي ﷺ.

وختام الكلام رواية عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق ﷺ يقول فيها: «إِنَّا وَآلُ أَبِي سُفْيَانَ أَهْلُ بَيْتَيْنِ تَعَادَيْنَا فِي اللَّهِ، قُلْنَا صَدَقَ اللَّهُ، وَقَالُوا كَذَبَ اللَّهُ، قَاتَلَ أَبُو سُفْيَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَاتَلَ مُعَاوِيَةُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، وَقَاتَلَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ ﷺ، وَالسُّفْيَانِيُّ يُقَاتِلُ الْقَائِمَ ﷺ».

فالمعركة واحدة والمشروع واحد، وهذه هي جبهة العدو التي تسلّم الإمام الحسن المجتبي ﷺ قيادة المعركة ضدها، وسنفصل كيف تصرف الإمام ﷺ وأيّ ظروف عاش، وأيّ قرارات اتخذ في ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

الفصل الخامس

ظروف المواجهتين العلوية والحسنية

الليلة التاسعة من شهر محرم 1442 هـ
(آب 2020م)



نستكمل في هذه المحاضرة ما بدأناه من الحديث عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام وأهم الجوانب في سيرته ومواقفه المباركة، ولكن قبل ذلك، ومن أجل دفع شبهة قد تأتي إلى أذهان البعض، نجد من المناسب التنبيه على مسألة ترتبط بمعرفتنا واعتقادنا بالأئمة عليهم السلام.

الحسن والحسين عليه السلام منهج واحد

نعتقد بأنه لا فرق بين الحسن والحسين عليه السلام في الفضل أو المنزلة أو المقام أو العظمة أو الدرجة. وبتعبير آخر، كل إمام منهما هو كالآخر، سواء في العلم أو العصمة أو التقوى أو الورع أو العبادة أو الزهد أو الجهاد أو الشجاعة أو مكارم الأخلاق أو سائر الصفات الكمالية والأخلاقية والعلمية والروحية والنفسيّة العظيمة. ونكتفي للتنبيه على ذلك بالتذكير بما روي عن رسول الله ﷺ في وصفهما معاً، حين قال: «الحسنُ والحسينُ سيِّدا شبابِ أهلِ الجنَّةِ». ففي يوم القيامة حينما تُبلى السرائر وتكشف الحقائق وتتضح المقامات الواقعيّة، يكون الحسن والحسين عليه السلام إلى جنب بعضها سيّدَيْن لشباب أهل الجنّة في عالم المقامات الواقعيّة. بل

ونضيف إلى ذلك أنَّ الإمام الحسين عليه السلام بعد شهادة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام كان يعتقد بإمامة أخيه الحسن عليه السلام وعصمته وقيادته، وكان تابعًا له ومطيعًا لأمره، بل أكثر من ذلك أيضًا، فقد ورد في بعض الروايات، كما عن الإمام الباقر عليه السلام أنه: «مَا تَكَلَّمَ الْحُسَيْنُ بَيْنَ يَدَيِ الْحَسَنِ إِعْظَامًا لَهُ»⁽¹⁾، أي إن الحسين عليه السلام كان إذا حضر في مجلسٍ فيه أخوه الحسن عليه السلام، فإنه ما كان يُكَلِّم الناس في محضر أخيه احترامًا وتعظيمًا له، كما ورُوي عن الإمام الباقر عليه السلام أيضًا أنه قال: «وَإِنَّ الْحُسَيْنَ كَانَ إِذَا حَضَرَ الْحَسَنُ لَمْ يَنْطِقْ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ حَتَّى يَقُومَ»⁽²⁾، أي ما دام الحسن عليه السلام حاضرًا، فإنَّ الحسين عليه السلام ما كان يتكلَّم. ورُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مَشَى الْحُسَيْنُ بَيْنَ يَدَيِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَطُّ وَلَا بَدَرَهُ مَنَاطِقٌ إِذَا اجْتَمَعَا تَعْظِيمًا لَهُ»⁽³⁾، أي إنَّ الحسين عليه السلام لم يكن يتقدَّم الحسن عليه السلام لا في مشيه ولا في كلامه.

الهدف من التنبيه على هذا الأمر هو أنَّ بعض الناس قد حاولوا أن يروجوا لفكرة مفادها أنَّ موقف الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة المشروع الأموي كان مختلفًا عن موقف الإمام الحسن عليه السلام، وحاولوا الاستدلال على فكرتهم هذه من خلال بيان وجوه الاختلاف بين مواجهة الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية ومواجهة الإمام

(1) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، ج 3، ص 401.

(2) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج 2، ص 17.

(3) النوري، الحسين بن محمد تقي، مستدرك الوسائل، ج 8، ص 393.

الحسين عليه السلام ليزيد. ولكنَّ هذه الفكرة لا أساس لها من الصحة على الإطلاق، بل بوسعنا أن نقول إنَّه لو كان الحسين عليه السلام هو القائد في سنة 40 و41 هـ لفعل عين ما فعله الحسن عليه السلام، ولو كان الحسن عليه السلام هو القائد في سنة 60 و61 هـ لفعل عين ما فعله الحسين عليه السلام من دون أدنى فرق. وسوف يكون لنا وقفة أخرى مع هذه الفكرة لاحقاً إن شاء الله.

ظروف مواجهة أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية

إذا اتَّضح هذا نرجع إلى موضوع بحثنا، أي المواجهة بين البيت الهاشمي والبيت الأموي. كنَّا قد ذكرنا أنَّ المهمة الأصعب والأوليَّة الأساسيَّة عندما تولَّى الإمام الحسن عليه السلام مسؤوليَّة القيادة والخلافة كانت هي استكمال التحضيرات والتوجُّه نحو المعركة التي كان أمير المؤمنين عليه السلام قد بدأ الإعداد لها في الأشهر الأخيرة من حياته الشريفة. ولتتمكَّن من فهم ما حصل مع الإمام الحسن عليه السلام بدقَّة، لا بدَّ من الرجوع خطوةً إلى الوراء والتعرُّف على ظروف مواجهة أمير المؤمنين عليه السلام، لأنَّ وظيفة الإمام الحسن عليه السلام كانت تتَّمَّة واستكمالاً لهذه المواجهة.

عندما قُتل عثمان واجتمع الناس على أمير المؤمنين عليه السلام، بايعه على الخلافة المهاجرون والأنصار من أهل المدينة، وأرسلت بقيَّة البلاد الإسلاميَّة أيضاً وفود البيعة، فدخلت كلَّ البلاد الإسلاميَّة من

الحجاز وشبه الجزيرة العربيّة واليمن ومصر والعراق وخراسان وغيرها، باستثناء الشام، والتي كان واليها والمسيطر عليها حينئذ معاوية. وبمجرد أن تولّى أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة بدأ بمجموعة خطوات وإجراءات إصلاحية، كما كانت سيرة كلّ خليفة جاء قبله، ومن أهمّ هذه الإجراءات تغيير الولاة المنصّبين على مختلف الولايات الإسلاميّة. وقد كان الوالي في ذلك النظام الإسلامي يتمتّع بصلاحيّات مهمّة وواسعة، ويحوز موقعًا حسّاسًا وخطيرًا في إدارة البلاد الإسلاميّة، سواء على مستوى الأمن أو العدل أو السلام أو الرفاه أو التعامل مع الناس، ولذلك أقدم أمير المؤمنين عليه السلام على إجراء التعديلات اللازمة على الولاة، واختار لهذا المنصب المهم من يعتقد بصلاحتهم وورعهم وتقواهم وكفاءتهم لتولّي هذه المسؤوليّات. ولأنّه كان يعتقد ويعلم أنّ معاوية لم يكن أهلاً لمنصب الولاية، لما ظهر منه طوال سنوات حكمه لبلاد الشام من فساد وتضييع لأموال المسلمين وظلم وتمييز بين الناس، فقد قام بعزله. هذا بالإضافة إلى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان أعلم الناس بحال أبي سفيان ومعاوية وهذا البيت والمشروع السفياني، وكان على دراية بسيرتهم وتاريخهم الملوّث بالتواطؤ على الإسلام والتآمر عليه منذ أوّل ظهوره، فأراد أن يسلبهم ذلك المنصب والقاعدة الشعبيّة كي لا يتمكّنوا من تنفيذ مشروعاتهم المعادي للدين. وبناءً على ذلك قام أمير المؤمنين عليه السلام بعزل معاوية عن ولاية الشام، إلّا أنّ معاوية رفض امتثال هذا القرار، وأعلن التمرد

والعصيان المسلّح، ورفض تسليم الولاية إلى الوالي الجديد الذي عينه أمير المؤمنين (عليه السلام)، وأعلن الخروج على الخليفة الشرعي. وقد ذكرنا في المحاضرة السابقة أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) هو الخليفة الذي لا نقاش في شرعيّة خلافته بين المسلمين جميعاً، سواء على المبنى العقائدي الشيعي أو المبنى العقائدي السني، وبالتالي يكون معاوية قد أعلن الخروج على الخليفة الشرعي الذي لا خلاف في شرعيّته، وحمل السيف في وجهه، وحرّض على محاربته وقتاله، وعزّل الشام عن بقيّة الخلافة الإسلاميّة محوّلًا إيّاها إلى قاعدة يأوي إليها المتمرّدون والمعارضون، بل وللصوص والفاسدون أيضاً، فكان كل مسؤولٍ عن بيت مالٍ للمسلمين في العراق أو الحجاز أو اليمن أو غيرها من البلاد ثبتت في حقّه تهمة الفساد ونهب بيت المال وأراد أمير المؤمنين (عليه السلام) محاسبته، يحمل المال المنهوب ويهرب به إلى الشام فيستقبله معاوية أحرّ الاستقبال، حتّى جعل الشام ملجأً لكلّ متمرّد وخارج على الإمام الشرعي، ولكلّ فاسد وسارق لبيت مال المسلمين.

اتّخذ أمير المؤمنين (عليه السلام) قراره بعزل معاوية مهما كلف الأمر، ثمّ في تلك الفترة حصلت بعض التطوّرات والأحداث في الحجاز ولاحقاً في العراق، كحرب الجمل وذهاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى البصرة ثمّ إلى الكوفة. وقد كانت الكوفة آنذاك قاعدة عسكريّة ضخمة، فبدأ أمير المؤمنين (عليه السلام) بتحضير الجيش وتجهيزه فيها للتوجّه إلى

الشام وقاتل معاوية وعزله وإعادة بلاد الشام إلى الدولة الإسلامية الكبرى، ف وقعت حرب صفين.

في حرب صفين وقف جيشان كبيران مقابل بعضهما. وكما ذكرنا سابقاً، حينما نتحدث عن جيوش في ذلك الزمان، فإننا لا نقصد جيوشاً نظاميةً كالموجودة لدى الدول في أيامنا هذه. نعم، قد يضم الجيش كتيبةً أو كتيبتين فقط من الجنود المتفرغين الذين يأخذون رواتبهم من الدولة، أما غالبية أفراد الجيش فكانت من القبائل والعشائر المتطوعة والمبايعة، والتي كانت تُرسل إبنائها للمشاركة في القتال.

طالت معركة صفين لأشهر طويلة، و وقعت فيها خسائر بشرية كبيرة من الطرفين، إلى أن كادت تُحسم في خواتيمها لمصلحة جيش أمير المؤمنين (عليه السلام). وهنا نجد من المناسب أن نقف قليلاً لنشير إلى مسألة في غاية الأهمية. إننا دائماً ما نوّكد على مسألة البصيرة والوعي والطاعة للإمام الشرعي والانقياد للقيادة، ولكن إذا أردنا أن نفهم بحق أهمية هذه العناصر في أي مجتمع من المجتمعات، فأفضل طريق لذلك هو مشاهدة حال المجتمعات التي افتقرت إليها. فإن بعض الأحداث تغيّر مجرى التاريخ، بل إنّ مصائر الشعوب والأمم والأجيال قد تتغيّر نتيجة خطأ ارتكب في يومٍ أو ساعة، أو نتيجة غفلة أو عدم بصيرة أو عدم طاعة في واقعة معينة.

في يومٍ من أيّام معركة صفّين، كادت المعركة تُحسم لمصلحة جيش أمير المؤمنين (عليه السلام)، وبدأ جيش معاوية بالانهيار، وتوغّلت مجموعة من جيش أمير المؤمنين (عليه السلام) على رأسها مالك الأشتر وشقّت جيش معاوية حتّى وصلت إلى باب خيمة معاوية. ومعاوية بالطبع لم يكن يحمل سيفًا ويقاتل كأمر المؤمنين (عليه السلام)، بل كان يدفع الناس نحو القتال ويختبئ خلفهم، حتّى أنّ كتب التاريخ تنقل ما انتاب معاوية من خوف وجُبن حينما دعاه أمير المؤمنين (عليه السلام) للمبارزة وحسم المعركة، إلّا أنّه لا مجال لنقل هذه القصة هاهنا. على أيّة حال، فحينما مالت الكفّة لصالح جيش أمير المؤمنين (عليه السلام)، اقترح الداهية عمرو بن العاص حيلته المشهورة، فأمر برفع المصاحف على رؤوس الرماح، والمصحف هو القرآن المكتوب والمؤلّف من الأوراق والصحف، فرفعوها وقالوا: نحتكم إلى كتاب الله، وبيننا وبينكم كتاب الله. أقول: لو كان لدى إنسانٍ شيء من الوعي والفهم لكان أجاب بكلّ بساطة: الآن تريدون الاحتكام لكتاب الله حينما بدأت الهزيمة تلحق بكم وأوشك جيشكم على الانهيار؟! لماذا لم تقدّموا مقترح الاحتكام إلى كتاب الله من أوّل لحظة تواجه فيها الجيشان؟! إلّا أنّ جيش أمير المؤمنين انقسم في موقفه، فقال فريق: لا تُصغوا إليهم فما هذه إلا خدعة، فلنكمل المعركة ونحسمها، بينما قال فريق آخر: فلنقبل بالتحكيم ولننزل على حكم القرآن، واختلف الفريقان حتّى كاد أن يقع القتال بينهما. أراد أمير المؤمنين (عليه السلام) حسم الموقف وقطع

النزاع بين الفريقين، فحذّروهم من الوقوع في الفخّ الذي نصبه عمرو بن العاص، ونبّههم على أنّ هذه خدعة لا ينبغي الإصغاء إليها، ودعاهم للاستمرار في القتال وحسم المعركة، إلّا أنّ إصرار الفريق الآخر كاد أن يُشعل نار القتال في جيش أمير المؤمنين، وقد كان يقود هذا الفريق مجموعة من الأفراد النافذين الذين اخترقوا جيش أمير المؤمنين ﷺ بفعل أموال معاوية، كالأشعث بن قيس الذي كان زعيم قبيلة كبيرة وكان من المنافقين. وقد وصل الأمر بهؤلاء إلى أن يسلّوا سيوفهم في وجه أمير المؤمنين ﷺ، ويخيّروه إمّا أن يأمر مالك ومن معه بالرجوع أو يقتلوه.

حينما رأى أمير المؤمنين ﷺ نار الفتنة تشتعل في جيشه ممّا يُنذر بسفك كثيرٍ من الدماء ويُفضي إلى هزيمة قاسية، أرسل إلى مالك أن يرجع، فرجع مالك بعدما كان على بُعد خطوات من خيمة معاوية، وعلى بُعد دقائق من حسم المعركة.

فلو أنّ بقيّة جيش أمير المؤمنين ﷺ كان يتمتّع بالوعي والبصيرة والطاعة لإمامهم، لتغيّر وجه التاريخ، إذ الأمر لم يكن متعلّقًا بحسم معركة صقيّن فقط، بل إنّ تاريخ العالم الإسلامي، بل تاريخ البشريّة، كان سيتغيّر لولا ما وقع من هؤلاء! ومن هنا نعلم ما الذي ضاع في ذلك اليوم وفي تلك اللحظة.

وفي جميع الأحوال، تقرّر الاحتكام للقرآن، وهو ما عُرف لاحقًا بالتحكيم، وذلك بأن يُسمّي أمير المؤمنين ﷺ رجلًا من جيشه ويسمّي معاوية رجلًا من جيشه، فيجلس الاثنان للاحتكام واتّخاذ

الموقف المناسب. سَمَّى معاوية عمرو بن العاص الداهية المخادع،
أما أمير المؤمنين عليه السلام فسمَّى عبد الله بن عباس، إلا أنه واجه
اعتراض جماعةٍ ليست بالقليلة من جيشه، وهم لم يكونوا قليلي
البصيرة فحسب بل كانوا عديمي البصيرة، فأخذتهم العصبية
القبلية والعشائرية وخالفوا رأي إمامهم. وأصرّوا على تسمية أبي
موسى الأشعري، مع أنه معروف بتخلّفه عن أمير المؤمنين عليه السلام
وعن نصرته والقتال معه.

ومن المعلوم أنه إذا أراد شخص أن يكون مندوباً ونائباً عن قائد
ما، فلا بدّ بالحدّ الأدنى أن يكون مؤمناً بقائده وإمامه ومتبنيّاً
لموقفه ورأيه، فإنّ هذا مقتضى كونه نائباً. ولكنّ أبا موسى الأشعري
لم يكن كذلك أبداً، إلا أنه فُرض على أمير المؤمنين عليه السلام من قبل
تلك الفئة من جيشه. وكيف كان، فقد حصل التحكيم واجتمع
الحكمان للتفاوض والنقاش، ومن المعروف في التاريخ قصّة خداع
عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري، حيث اتّفقا على خلع كلّ
من معاوية وعلي عليه السلام وجعل الأمر شورى بين المسلمين، فقبل
أبو موسى الأشعري لسذاجته، فطلب منه ابن العاص أن يبدأ
بإعلان نتيجة التحكيم وإبلاغ الناس بخلعه لعلي عليه السلام، فقام أبو
موسى بالناس قائلاً: «إِنِّي قَدْ خَلَعْتُ عَلِيّاً مِنَ الْخِلَافَةِ كَمَا خَلَعْتُ
خَاتَمِي هَذَا مِنْ إِصْبَعِي». فقام عمرو بن العاص وقال: «وَإِنِّي قَدْ

أُثْبِتُ مُعَاوِيَةَ فِي الْخِلَافَةِ كَمَا أُثْبِتُ حَاتِمِي هَذَا فِي إِصْبَعِي»⁽¹⁾. فبان حينئذٍ أَنَّ جيشَ أمير المؤمنين قد خُدع.

وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام متوقعًا لهذه النتيجة، بل وحذر أكثر من مرةٍ من خطورة الوقوع في مصيدة معاوية، إلَّا أَنَّهُم رَفَضُوا العمل برأيه. ولكن بعد أَن شاهدوا نتيجة التحكيم أَصاب بعضهم الندمُ، فقالوا: لقد أَخطأنا بقبول التحكيم واختيار أبي موسى الأشعري، وما فعلناه كان كفرًا، ونحن نتوب إلى الله. ثمَّ أَقبلوا على أمير المؤمنين عليه السلام وقالوا له: وأنت يا علي أَخطأت وكفرت بقبولك التحكيم واختيار أبي موسى الأشعري، فعليك أَن تتوب. وهذه مظلوميَّةٌ إضافيَّةٌ لأمير المؤمنين عليه السلام! ومن هنا بدأت قضية الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليه السلام يطالبونه بالتوبة من الكفر، وهذا الكفر هو أَنَّهُ قبل بالتحكيم الذي فرضوه عليه! ومع ذلك كلِّه، فقد تحمَّل أمير المؤمنين عليه السلام الخوارج ومنطقهم ولغتهم، بل ومعارضتهم أيضًا، وتعامل معهم بصدر رحب، وتجنَّب الصدام معهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، إلى أَن لجؤوا إلى المواجهة المسلَّحة معه وأخلَّوا بالأمن العام وقتلوا الناس وبقروا بطون النساء، فاضطرَّ إلى قتالهم في حرب النهروان، والتي كانت حربًا مفروضةً على أمير المؤمنين عليه السلام، وإلَّا فلو عاد الأمر إليه، ولولا ما بدر منهم من عنف وقتل وجرائم، لما حاربهم ولتجنَّب القتال معهم، إذ الأولويَّة كانت قتال معاوية وإحباط مشروعه السفلياني.

(1) الكوفي، أحمد بن أعثم، الفتوح، ج 4، ص 214.

وفي جميع الأحوال، فقد ذهب أمير المؤمنين عليه السلام لقتال الخوارج، وبعد أن جادلهم وناقشهم طويلاً، استطاع أن يُحَيِّد ثمانية آلافٍ من أصل اثني عشر ألفاً، فلم يبقَ من الخوارج سوى أربعة آلاف أصروا على ما هم عليه، ف وقعت معركة النهروان، والتي انتهت بانتصار ساحق لجيش أمير المؤمنين عليه السلام، إلا أنها تركت جراحاً كبيرةً جدّاً في جسد الدولة الإسلامية، وتحديدًا في جسد الكوفة والعراق. إذ إنّ أغلب هؤلاء الذين قُتلوا في معركة النهروان كانوا من قبائل وعشائر وعوائل تعيش في العراق والكوفة، ومن المعلوم مدى تأثير العلاقات العشائريّة والقبلية. ومع ذلك، فقد بدأ أمير المؤمنين عليه السلام في الأشهر الأخيرة من حياته الشريفة بالعمل على تحضير الجيش من جديد وتجهيز القوّات العسكريّة للمضي نحو الشام وحسم المعركة مع معاوية، لأنّه عليه السلام كان يعلم أنّ تكليفه هو عدم السكوت على ما يحدث في الشام، وعلى البؤرة الخطيرة والغدّة السرطانيّة التي تهدّد الإسلام والمجتمع الإسلامي والدولة الإسلاميّة.

تثاقل الناس في الأشهر الأخيرة من حياة أمير

المؤمنين ﷺ

للأسف الشديد، ففي الأشهر الأخيرة من حياة أمير المؤمنين ﷺ، برزت مجموعة عوامل أدّت إلى عدم تجاوب الناس وتفاعلهم معه، ومن أهمّها:

العامل الأوّل: كثرة الشهداء والجرحى نتيجة الحروب المتتالية والملاحقة. والأمر لم يكن مقتصرًا على الحروب الكبيرة، بل واجه جيش أمير المؤمنين العديد من المعارك الصغيرة والغارات التي ذكرتها كتب التاريخ. وثمة كتاب يتناول هذه المعارك الصغيرة التي وقعت يحمل اسم الغارات، وهي التي تُسمّى في أيّامنا هذه بالمعركة بين الحروب، وهذه المعارك الصغيرة كانت تجري بشكل دائم.

العامل الثاني: التعب الذي أصاب كثيرًا من الناس، والخلافات التي تأجّجت نتيجة الصراعات وشراء الذمم. فإنّ معاوية بن أبي سفيان قد أنفق أموالًا طائلة لشراء ذمم كثيرٍ من الشخصيات البارزة. ونحن في أيّامنا هذه نسمع أنّه قد دُفع 500 مليون دولار أو مليار دولار أو ملياري دولار من أجل مواجهة حزب الله، أو مثلاً في سوريا أنفق 200 مليار دولار خلال السنوات القليلة الماضية من أجل تدميرها، لذلك يمكن لنا أن نتصوّر ونفهم ما الذي كان يحصل في التاريخ وما الذي كان يفعله معاوية. فقد كان تحت يد معاوية بيت مال ضخم جدًّا، لم يكن يُنفقه على الفقراء والمساكين، بل كان

ينفقه على شراء الذمم، فكان يشتري ذمم زعماء العشائر والقبائل، والشخصيات الأساسية والمؤثرة في العشائر والقبائل، وكان يعدّهم ويميّهم، وهذا كله كان يؤثر في الناس مع وجود المثبطين والمخدلين. ولذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام في الأشهر الأخيرة من حياته يُكثر من تأنيب الناس وحثّهم واستثارتهم، ويدعوهم للاستجابة له، وهذا موجود بكثرة في خطب نهج البلاغة، حتّى وصل به الأمر أن يقول لهم: «اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَيْتُهُمْ وَمَلُونِي وَسَمَيْتُهُمْ وَسَمُونِي»⁽¹⁾.

شهادة أمير المؤمنين عليه السلام وقيادة الإمام الحسن عليه السلام

انتهت هذه المرحلة بشهادة أمير المؤمنين عليه السلام، والتي أدّت - كما ذكرنا سابقاً - إلى حدوث انفعال عاطفي شديد في الكوفة والعراق، فاجتمع الناس بجموع غفيرة حول الإمام الحسن عليه السلام، ما مكّنه من تشكيل جيش كبير لمواجهة معاوية. ومع أنّ عدد جنود الجيش كان كبيراً - إذ يقدره البعض بعشرين ألف مقاتل، بينما يوصله آخرون إلى ثلاثين ألفاً، إلّا أنّ هذا الجيش كان خليطاً من أفراد وعشائر وقبائل جُمعت على نحو السرعة، وذلك لأنّ معاوية كان قد جهّز جيشاً واتّجه نحو الكوفة عندما علم بشهادة أمير المؤمنين عليه السلام فكانت تصله رسائل من خلال جواسيسه وزعماء القبائل الذين اشترى ذممهم، تفيده أنّ الوضع في الكوفة والعراق

(1) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 1، ص 65.

صعب ومُشْتَت، وأنَّ بوسعه أن يغتنم الفرصة ويشنَّ هجومًا مفاجئًا، ولذلك جهَّز جيشًا كبيرًا واتَّجه به نحو الحدود العراقيَّة الحاليَّة، ممَّا اضطرَّ الإمام الحسن عليه السلام أن يجهَّز جيشه بسرعة، ثمَّ قرَّرَ قوَّةً قوامها عشرة آلاف مقاتل بقيادة عبيد الله بن العبَّاس بن عبد المطَّلِب، وهو أخو عبد الله بن العبَّاس، وعيَّن قيس بن سعد بن عبادة نائبًا له، وأرسلهم لملاقاة جيش معاوية وإيقاف تقدِّمه، ريثما يتمكَّن من تجهيز بقيَّة الجيش والالتحاق بهم.

توجَّهت هذه القوَّة والتقت بجيش معاوية في منطقة اسمها مسكن، وكان الإمام الحسن عليه السلام قد أوصاهم بأن لا يبدأوا القتال حتَّى يصل عليه السلام إليهم، إلَّا إذا فُرض عليهم القتال، وبقي هو في الكوفة يحضِّر بقيَّة القوَّات ويجمع القبائل ويتكلَّم معهم ويجهِّز الجيش والسلاح والإمكانات في معسكرات أُعدَّت لهذا الغرض. وهذا الأمر بطبيعة الحال يحتاج إلى وقت، فقد يستغرق عدَّة أسابيع، بل قد يطول إلى شهر أو شهرين، كي تأتي القبائل وتلتحق وتجهِّز وتُهيِّأ الموَن والإمكانات وتُنظَّم كافَّة المسائل، وقد كان لهذا الأمر ضريبة، وهي أنَّ تلك العاطفة الجيَّاشة والانفعال والحماسة التي ظهرت بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام بدأت تتراجع وتنخفض، وفي المقابل فإنَّ تلك العوامل السابقة التي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام في الأشهر الأخيرة من حياته عادت لتحضر بقوة.

فالجيش الذي كان يعمل الإمام الحسن عليه السلام على تشكيله كان خليطًا من قبائل وعشائر واتِّجاهات متعدِّدة، وأفراده لم يكونوا

على قلب رجل واحد، ولم يكن بينهم اجتماع في العقول ولا في القلوب ولا في الرؤية، بل لم يكن الجميع مُسلِّماً بإمامة الإمام الحسن (عليه السلام) وقيادته تسليماً مطلقاً. فمنهم من كان يتَّبِع الإمام (عليه السلام) فقط لأنَّه الخليفة الفعلي والحاكم الفعلي في العراق، وفي أيِّ لحظةٍ قد ينقلبوا عليه إذا مالت الكفَّة لغيره. ومنهم من التحق بالجيش وفي نيَّته أن ينفصل عن الإمام حسن (عليه السلام) ويلتحق بمعاوية بمجرد أن يلتقي الجيشان، وهذا كان من شأنه أن يُحدث دويًّا وكارثةً في جيش الإمام (عليه السلام) ! فقد كان ثمة اتفاق بين بعض زعماء القبائل ومعاوية، بل وأرسل هؤلاء رسائل وضمانات لمعاوية في مقابل الأموال التي أخذوها، على أنَّه إذا التقى الجيشان فإنَّهم لن ينفصلوا هم وقبائلهم عن جيش الإمام الحسن (عليه السلام) ويشقُّوا جيشه إلى قسمين ويلتحقوا بجيش معاوية فحسب، بل إنَّهم سوف يُلقون القبض على الإمام الحسن (عليه السلام) ويسلِّمونه حيًّا إلى معاوية! كما أنَّ قسمًا من الجيش كان قد التحق بالمعركة طمعًا بالغنائم فقط، من دون أن يعينهم المنتصر أو المهزوم. وقسم آخر من جيش الإمام (عليه السلام) - وهو القسم الأخطر من الجيش - كان عبارةً عن الخوارج الذين رأوا في انضمامهم إلى جيشه (عليه السلام) فرصةً لقتال معاوية، فقرَّروا اغتنامها على أن يتفرَّغوا بعد ذلك لتصفية حسابهم مع الحسن بن علي (عليه السلام)، فكان التحاقهم من باب تقاطع المصالح ومواجهة العدو المشترك. والقلَّة القليلة فقط هي التي كانت مخلصَّة وواعيَّة وبصيرةً ووفيةً ومطيعَّة ومُدركةً

لطبيعة المعركة والهدف الذي يمضون لأجله، وهؤلاء لم تكن أعدادهم كبيرةً على الإطلاق، بل كانت أعدادهم محدودة. هكذا كانت تركيبة الجيش الذي كان سيقا تل به الإمام الحسن عليه السلام جيش معاوية، كي يفرض عليه قرار الحكومة الإسلامية ويستعيد منه ولاية الشام.

مؤامرات معاوية وتخاذل الجيش

ولكنّ الضربة القاسية وشبه القاضية التي تعرّض لها جيش الإمام الحسن عليه السلام تمثّلت في حدثين كبيرين وخطيرين جدًّا:

• الحادثة الأولى: خيانة عبيد الله بن العباس

كما ذكرنا سابقًا، فإنّ طليعة قوّات جيش الإمام الحسن عليه السلام التي توجّهت نحو الحدود العراقية لملاقاة جيش معاوية كانت تحت قيادة عبيد الله بن العباس، والذي وقع في خطأ بل كارثة كبيرة. وعبيد الله بن العباس كان صاحب سابقةٍ في الإسلام والإيمان والجهاد، فهو بالحسابات العقائدية والإيمانية كان ضدّ المشروع السفيفاني. كما أنّه وفقًا لحسابات الانتماء والاتباع كان من أتباع أمير المؤمنين عليه السلام، بل من ثقافته، حتّى أنه ولّاه على اليمن. وإذا نظرنا إلى المسألة من ناحية الحسابات العشائرية أيضًا، فعبيد الله بن العباس هاشميّ من بني هاشم وابن عمّ رسول الله ﷺ، بينما معاوية أمويّ وابن أبي سفيان. بل حتّى من جهة

الحسابات الشخصية، كان لعبيد الله بن العباس ثأرٌ شخصيٌّ مع جيش معاوية، فقائد جيش معاوية كان بسر بن أبي أرطأة، وبسر هذا كان قد اعتقل طفليَّ عبید الله بن العباس وذبحهما حينما هاجم اليمن، فكان لعبيد الله ثأر شخصي معه. هذا يعني أنَّ عبید الله بن العباس كان من المفترض أن يكون محصَّنًا من جميع الجهات والحسابات والمعايير، إلَّا أنَّ مفاوضات سرِّيَّة حصلت بينه وبين معاوية، ونتيجةً للإغراء والخوف والترهيب والترغيب، خرج في منتصف الليل هو ومن معه من جيش الإمام الحسن عليه السلام. وتقدَّر بعض الروايات عدد الذين خرجوا معه بستة آلاف مقاتل، بينما تذكر بعض الروايات أنَّهم ثمانية آلاف! وحجم الكارثة يتَّضح لنا أكثر حينما نلتفت إلى أنَّ مجموع عدد المقاتلين لم يكن يتجاوز العشرة آلاف مقاتل!

ترك عبید الله المعركة وغادر بشكل كامل، فلحقه نصف الذين خرجوا معه من جيش الإمام الحسن عليه السلام، بينما التحق النصف الثاني منهم بجيش معاوية! استيقظ قيس بن سعد بن عبادة، فوجد أنَّ أكثر من نصف الجيش قد اختفى مع قائد الجيش. ومع ذلك، فقد اتخذ قيس موقفًا صلبًا، فجمع القوَّات وأعلن استعداداه للاستمرار في المواجهة حتَّى النفس الأخير، ولكن ما تبقَّى من الجيش لم تعد لديه القدرة على الصمود أمام جيش جرَّار كجيش معاوية، ولو لأيَّامٍ قليلةٍ بانتظار وصول الإمام الحسن عليه السلام وبقية القوَّات.

• الحادثة الثانية: طعن الإمام الحسن (عليه السلام)

تقدّم أنّ الإمام الحسن (عليه السلام) أرسل قوّةً من جيشه بقيادة عبيد الله بن العباس إلى الحدود العراقيّة، وبقي هو في الكوفة للعمل على تجهيز بقيّة القوّات في معسكرات ومخيّمات. وبينما كان الإمام (عليه السلام) في أحد مخيّمات التحشيد، بادر أحد الخوارج إلى طعنه وهو راكب على فرسه محاولاً قتله، إلّا أنّ الطعنة أصابت فخذه فجرح ولم يُستشهد. كما ويُنقل في بعض الروايات أنّ الإمام الحسن (عليه السلام) تعرّض لمحاولة اغتيال أخرى أثناء صلاته. هذا الأمر أدّى إلى إبعاد الإمام (عليه السلام) من المخيّم إلى المدائن، وهي مدينة عراقية معروفة وما زالت حتّى أيّامنا هذه، وقد كانت عاصمة الوالي قبل أن تُصبح الكوفة هي العاصمة. وعلى أيّة حال، فقد أخرجوا الإمام الحسن (عليه السلام) من المخيّم وأخذوه إلى بيت والي المدائن، وهو سعد بن مسعود الثقفي عمّ المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وبقي هناك مدّة من الزمن يتعالج.

انتشر خبر تعرّض الإمام الحسن (عليه السلام) لمحاولة اغتيال، فتسبّب ذلك بحالة من الذعر والانهيّار النفسي والمعنوي الشديد في جيش الإمام (عليه السلام). ومع ذلك بقي الإمام (عليه السلام) مصرّاً على الاستنفار والتحشيد وجمع القوّات للمضيّ باتجاه المعركة، ولكنّه وصل إلى وضعٍ صعبٍ جدّاً. في هذه المرحلة، ظنّ معاوية أنّه يعمل بدهاء وحنكة من أجل تفتيت جيش الإمام، ولكنّه في الحقيقة ضيّع على نفسه فرصة تاريخيّة، وذلك بفضل الله سبحانه وتعالى وحكمة

الإمام الحسن عليه السلام وذكائه وعظمته، وسوف نأتي لاحقاً على ذكر هذه الفرصة التاريخية التي ضيعها.

أرسل معاوية رسالةً إلى الإمام الحسن عليه السلام ذكر فيها أنه على استعداد لعقد صلح معه والتوصل إلى تسوية لتجنيب المسلمين القتال، وعبر عن جاهزيته للتوقيع على أي شرط يضعه الإمام. وهذه المفاوضات لم تكن سريةً، بل إن معاوية كان يرسل وفوده علناً، وكانت هذه الوفود بعد انتهائها من لقاء الإمام عليه السلام تُخبر قادة جيشه وجُنده بأنها مبعوثة من قبل معاوية، وأنه أرسلها طلباً للصلح، وأنه مستعد للقبول بالشروط التي يطلبها الإمام الحسن عليه السلام. وقد كانت هذه الحيلة تُزلزل جيش الإمام عليه السلام، فمن بقي منهم مستعداً للقتال بات يتساءل: الآن وقد أصبح معاوية على استعداد للتسوية وحل النزاع والنزول عند شروط الإمام الحسن عليه السلام، فلم الحرب والقتال؟! وقد كانت هذه خدعة وحيلة من معاوية هدفها تفتيت ما تبقى من جيش الإمام عليه السلام. أمّا الإمام الحسن عليه السلام، فإنه عند بداية المفاوضات لم يُخبر أحداً بالأمر، بل تريث لينظر في الفكرة المطروحة، وكان يُدرك أنها خدعة وحيلة من حيل معاوية، فقرر أن يحول هذا التهديد إلى فرصة، خاصةً في ظل ضيق الخيارات المتاحة أمامه، وهو ما سوف نبينه لاحقاً إن شاء الله. ولكن مع ذلك فقد توجه الإمام عليه السلام إلى الناس وقال لهم بكل صراحة: «(...) وَمُعَاوِيَةُ يَدْعُونَا إِلَى أَمْرِ لَيْسَ فِيهِ عِزٌّ وَلَا نَصْفَةٌ [أي ليس في عدل]، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَلْمُوتَ،

رَدَدْنَاهُ وَحَاكَمْنَاهُ إِلَى اللَّهِ بِطَبَاتِ السُّيُوفِ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ الْحَيَاةَ،
 قَبِلْنَاهُ، وَأَخَذْنَا لَكُمْ بِالرَّضَى». فَنَادَاهُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ: «الْبَقِيَّةُ
 الْبَقِيَّةُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ. [أي: أبقى علينا، فنحن لا نريد القتال
 والموت]»⁽¹⁾.

فكما أنَّ الإمام الحسين (عليه السلام) في ليلة العاشر من محرم قرّر امتحان
 بقيّة أصحابه بناءً على اقتراح السيّدة زينب (عليها السلام)، فكذلك فعل
 الإمام الحسن (عليه السلام) قبل أن يحسم خياره، امتحن القوّات والجيش
 الذي سيقاقل به، فوجد الجميع من كلّ الأطراف والجهات،
 باستثناء القلّة المخلصة والوفيّة، يقولون: البقيّة البقيّة يا بن رسول
 الله، ورفضوا القتال.

ظروف مواجهة الإمام الحسن (عليه السلام) لمعاوية

ومن الأمور التي قام بها معاوية من أجل الضغط على الإمام
 الحسن (عليه السلام) هي أنّه أرسل إليه تلك الرسائل التي كانت تصله
 من بعض زعماء القبائل، والتي كانوا يعدّونه فيها بالانشقاق عن
 جيش الإمام (عليه السلام) حينما يلتقى الجيشان، بل بتسليمه إيّاه حيّاً
 أيضاً، وتلك الرسائل كانت مكتوبة وموقّعة ومختومة، وبالتالي
 فإنّ الصورة كانت واضحةً عند الإمام (عليه السلام)، وكان يعلم أنّ أمامه
 خيارين لا ثالث لهما:

(1) ابن طاووس، علي بن موسى، التشريف بالمنن في التعريف بالفتن، ج 1، ص 361.

الخيار الأول: الذهاب في المعركة حتّى النهاية ولو بلغ الأمر ما بلغ.
الخيار الثاني: الذهاب إلى تسوية سياسيّة مرحليّة مؤقتة، أو ما يُسمّى المودعة أو المهادنة، والتي سُمّيت تسامحًا بالصلح، وإن كان في الحقيقة ليس بصلح، كالذي عقده الرسول ﷺ في الحديبية، والذي كان عبارةً عن عقد هدنة ومودعة مشروطة بين المسلمين والمشركين، وإن كان قد عُرف بصلح الحديبية.

وبالمفاضلة بين هذين الخيارين، علم الإمام الحسن ﷺ أنّ نتائج الخيار الأوّل ستكون كارثيّة للغاية. فالمشهد هنا يختلف تمامًا عما حصل لاحقًا مع الإمام الحسين ﷺ، إذ إنّ الحسين ﷺ خرج من المدينة ومعه بيعة من الكوفة، فالنتائج العسكريّة ليست محسومة من أوّل الأمر، أمّا هنا، فالإمام الحسن ﷺ في قلب المعركة والحرب والقتال، وبملاحظة حال الجيش والأنصار، فالنتيجة العسكريّة واضحة ومحسومة، والهزيمة التي سوف تحلّ بالجيش سوف تكون هزيمةً كارثيّة، إذ القبائل سوف تخون الإمام ﷺ وتتآمر عليه، بل سوف تسلّمه حيًّا لمعاوية، أو من الممكن أن يحصل اقتتال عظيم داخل الجيش، كالذي كاد يواجهه أمير المؤمنين ﷺ في حرب صفّين، وفي نهاية المطاف سيُقتل الحسن والحسين ﷺ ومحمّد بن علي - المعروف بمحمّد بن الحنفية - وأبو الفضل العبّاس وعبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسائر بني هاشم، كبيرهم وصغيرهم، ومعهم البقيّة الباقية من المجاهدين الصالحين المؤمنين بهذا الخط. فهذه الحرب إذاً تعني

الإبادة والانتحار، فمن سيبقى ليحمل هذا اللواء ويدافع عن الإسلام ويبين الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ؟! لن يبقى أحد. إذن، التوجّه إلى الحرب معناه تسليم كلّ شيءٍ لمعاوية، السلطة والخلافة والأمة والدين والبلاد الإسلاميّة، ومعناه أنّه لن يبقى بإمكان أحد أن يتجرّأ على الوقوف في وجه معاوية أو الردّ عليه في شأنٍ ديني ولا سياسي ولا اجتماعي على الإطلاق. التوجّه إلى الحرب معناه تسليم الأمة بكاملها للمشروع الأموي، ولذلك كانت نتائج الحرب واضحة، فكان لا بدّ من الذهاب إلى تسوية سياسيّة مع معاوية. وهذه التسوية وإن كانت تسلّم السلطة السياسيّة لمعاوية، إلّا أنّه تسليم مؤقت سرعان ما يزول، وهو ليس تسليمًا للأمة الإسلاميّة ولا الدين الإسلامي، بل مجرد تسليم للسلطة السياسيّة يُحافظ بموجبه على حياة الحسن والحسين وأهل البيت ﷺ وبني هاشم والجماعة المؤمنة التي يُعتمد عليها لاستكمال مواجهة المشروع الأموي ونشر الإسلام وحفظه، هذا الإسلام الذي كان هدفًا لمشروع معاوية ومن بعده يزيد.

إدّا، من أهمّ نتائج هذه التسوية هو حفظ الجماعة المؤمنة، كي يُعتمد عليها في ثورات ومواجهات جديدة للمشروع الأموي في ظروف مختلفة. هذا بالإضافة إلى الحيلولة دون سفك دماء المسلمين في حربٍ من هذا النوع بلا طائل ولا جدوى، إذ كان لدى الإمام الحسن ﷺ وضوح كامل بأنّ الذهاب إلى حربٍ كهذه سوف تكون نتيجته كارثيّة على الإسلام. أمّا في كربلاء، فكان الأمر

مختلفًا تمامًا، إذ كان مقتضى حفظ الإسلام والطريق الوحيد لذلك التوجّه إلى مواجهة كربلائية، وهو ما حصل، ولذلك حفظت كربلاء الإسلام. بينما لو قاتل الحسن والحسين عليهما السلام ومعهم أهل البيت والأنصار الصادقون في سنة 41 هـ وواجهوا معاوية عسكريًا في منطقة مسكن على الحدود بين الشام والعراق، في معركة من هذا النوع وظروفي من هذا القبيل، لكان ضاع الإسلام وضاعت الأمة وانتصر المشروع السفيفاني، مشروع «لا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل».

حقيقة موقف الإمام الحسن عليه السلام

إذا أردنا أن نلخص حقيقة موقف الإمام الحسن عليه السلام وفلسفته في جملة واحدة، يمكن لنا أن نقول: إنّ الإمام الحسن عليه السلام ذهب إلى تسويةٍ سياسيةٍ من أجل حفظ الجماعة التي سوف تحفظ الإسلام وتنشره وتدعو إليه، وحفظ الجماعة التي ستهيئ الأرضية من جديد للثورة والجهاد وإحياء الأمة، هذه هي فلسفة موقف الإمام الحسن عليه السلام. ولكننا نجد بعض الناس يحاولون إرجاع هذا الموقف إلى الخصوصيات الشخصية للإمام الحسن عليه السلام، فيقولون مثلاً إنه عليه السلام كان يفتقر إلى الشجاعة التي يمتلكها الحسين عليه السلام، وهذا في الواقع ظلم كبير بحق الإمام الحسن عليه السلام. إنّ الكثير من علمائنا، ومنهم الإمام الشهيد السيّد محمد باقر الصدر، يقولون: كان الحسن عليه السلام من أشجع أهل الأرض. وعلمائنا وكبار محققينا

يعتقدون أنَّ الموقف الذي اتَّخذه الإمام الحسن عليه السلام هو موقف يحتاج إلى شجاعة عظيمة جدًّا، فهو كان يعلم أنَّ اتَّخاذ مثل هذا الموقف سوف يُلقِي عليه مسؤوليَّة كبيرة وخطيرة، وسوف يُعرِّضه في الوقت نفسه للكثير من الظلم والأذى والاثِّام في زمانه، بل وعلى امتداد التاريخ. فمن السهل أن يتَّخذ القائد قرار الحرب يقول: سوف أَسْتشهد وينتهي الأمر، ولكن حينما يتطلَّب الموقف أن يذهب القائد نحو تسوية لحفظ المصالح الكبرى للإسلام والمسلمين والأُمَّة نتيجةً لظروف عسكريَّة وسياسيَّة واجتماعيَّة معيَّنة، فإنَّ هذا يحتاج إلى شجاعة أكبر وأعظم، وهنا تكمن شجاعة الإمام الحسن عليه السلام. وقد كان الإمام عليه السلام يبيِّن هذا الأمر دائماً ويشرح موقفه لأصحابه، ويقول لهم: لقد فعلت هذا الأمر لأحافظ عليكم، ولأحافظ على البقيَّة الباقية من المؤمنين الصالحين، لئلاَّ يقضي عليهم معاوية بن أبي سفيان.

كان الإمام الحسن عليه السلام يؤكِّد على هذا الأمر كثيراً، وقد أعاد توضيح موقفه أمام العشرات بل المئات من أصحابه، في لقاءات فرديَّة وجماعيَّة، لأنَّ الجميع كان يراجع في الأمر ويستشكِّل عليه ويسأله: لماذا فعلت هذا؟ فكان يبيِّن لهم صِحَّة موقفه. ولكن كثيراً من الناس لم يتمكَّنوا من فهم هذا الموقف، بل وحاول بعضهم في ذلك الوقت أن يلعبوا على وتر التمييز بين الحسن والحسين عليهما السلام من دون أن يُفلحوا. فقد كان الحسين عليه السلام داعماً بالكامل لموقف أخيه، بل كما ذكرنا سابقاً، لو كان الحسين عليه السلام هو القائد حينها

لكان اتّخذ الموقف نفسه. ومن هنا كان الحسين عليه السلام يزجر وينهر كلّ الذين كانوا يراجعونه طلباً لموقفٍ مخالفٍ لموقف الحسن عليه السلام، فهو لم يكن يقول لهم: القائد الآن هو الحسن عليه السلام، ولا سبيل لنا سوى الطاعة والصبر. كلّاً، بل كان ينهرهم ويزجرهم ويُعلن تأييده التام لموقف أخيه، لأنّه كان يؤمن بإمامته وعصمته وعلمه، ومعنى العصمة والعلم هو تطابق الموقف مع الواقع والمصالح الواقعيّة للإسلام والمسلمين والأمة الإسلاميّة.

وفي المحصّلة، فقد ذهب الإمام الحسن عليه السلام إلى هذا الخيار لأنّ تكليفه كان يقتضي ذلك، فعمل بتكليفه بكلّ صبر وشجاعة وحكمة، وعلى الرغم من أنّ الموقف كان صعباً وقاسياً، إلّا أنّه لم يتوانَ عن اتّخاذه والعمل به، إذ لم يكن أمامه أيّ خيار آخر لحفظ مصالح الإسلام العليا.

تحويل التهديد إلى فرصة

أمّا في ما يتعلّق بمجريات موقف الإمام الحسن عليه السلام، فيمكن لنا أن نقول إنّ الإمام عليه السلام بموقفه هذا قد حوّل التهديد إلى فرصة. كنّا قد أشرنا في ما مضى إلى أنّ معاوية باقتراحه الصلح قد أخطأ وضيّع مشروعه الذي كان يستهدف الإسلام وكلّ من يدافع عن الإسلام ويسعى لحفظه. فهو إنّما توسّل بحيلة الصلح من أجل تفتيت جيش الإمام عليه السلام، ولعلّه لم يكن يتوقّع أن يقبل

الإمام عليه السلام عرضه، ولكنَّ الإمام عليه السلام فهم هذا التهديد جيِّدًا وحوَّله إلى فرصة. ولو أنَّ معاوية لم يتوسَّل بهذه الحيلة وأخذ بالأمور نحو المواجهة العسكريَّة لكان بإمكانه أن يحسم المعركة نهائيًّا مع الإمام الحسن عليه السلام. وفي تقديرنا، فإنَّ الأمور لو لم تكن قد وصلت إلى ذلك الحدِّ، ولو لم يعرض معاوية التسوية، لكان الإمام عليه السلام عرضها عليه، حفظًا لمصالح الإسلام العليا، ولكنَّ هذا يبقى مجرد افتراض.

على أيَّة حال، فمعاوية هو الذي عرض التسوية، والإمام عليه السلام تلقَّفها لتحويلها إلى فرصة، فوضع عدَّة شروط لقبولها. وقد اختلف في عدد هذه الشروط، فذهب البعض إلى أنَّها ثلاثة، وعدَّها البعض أربعة، وجعلها البعض سبعة، بينما جمعها بعض علمائنا المحقِّقين فأوصلها إلى ما يقرب الخمسة عشر شرطًا. ونحن نذكر في ما يلي أهمَّ الشروط التي ذُكرت في المصادر التاريخيَّة والتي يمكن الاعتماد على رواياتها:

• الشروط المرتبطة بمنهج الحكم

الشرط الأوَّل: أن يعمل معاوية بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وهذا في الواقع كان شرطًا لإقامة الحجَّة وفضح معاوية ومشروعه لا أكثر، إذ إنَّ معاوية لم يعمل قطَّ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ طوال عشرين عامًا من حكمه.

الشرط الثاني: أنَّه ليس لمعاوية أن يعهد لأحدٍ بعده بالحكم، أي لا يحقُّ له أن يُحدِّد وليَّ عهدٍ يكون الخليفة من بعده.

الشرط الثالث: أن يكون الأمر بعد موت معاوية للحسن عليه السلام، وإن حدث للحسن عليه السلام حدثٌ - أي إن توفاه الله في حياة معاوية - فيكون الأمر بعد معاوية للحسين عليه السلام.
 إذن، في منهج الحكم اشترط الإمام عليه السلام على معاوية أن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفي ما يتعلق بمستقبل السلطة السياسية اشترط عليه أن لا ينصب وليَّ عهدٍ، وأن تكون السلطة للحسن عليه السلام، فإن كان متوفياً فللحسين عليه السلام.

• الشروط الأمنية:

الشرط الأول: أن الناس آمنون حيثما كانوا من أرض الله، في شامهم وعراقهم وحجازهم وتهامهم ويمنهم، وأن لا يُطالب معاوية أحداً بشيء مما كان في زمن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، خصوصاً أهل المدينة والعراق والحجاز، وأن لا يتتبع أحداً على ما مضى.
الشرط الثاني: أن يضمن معاوية أمن شيعة أمير المؤمنين عليه السلام ولا يتعرض لأحد منهم بسوء، وأن يوصل إلى كل ذي حقٍّ حقه.
الشرط الثالث: أن لا يبغى معاوية للحسن عليه السلام ولا للحسين عليه السلام ولا لأحدٍ من أهل البيت غائلةً سرّاً ولا جهراً، وأن لا يخيف أحداً منهم في أفقٍ من الآفاق. ولكنه ما لبث أن تأمر على الحسن عليه السلام وقتله بالسمِّ.

• الشروط الشكلية:

وقد اهتمَّ الإمام الحسن عليه السلام حتَّى بالأُمور الشكلية - أو ما يُعبَّر عنها في أيامنا بـ«البروتوكولات» - فوضع الشروط التالية:

الشرط الأول: أن لا يُسمَّى الحسن عليه السلام معاوية بأمر المؤمنين، ولا يقيم شهادةً عند معاوية.

الشرط الثاني: أن يترك معاوية سبَّ علي عليه السلام وأن لا يذكره إلَّا بالخير وأن يعدل عن القنوط عليه. ففي زمن معاوية كان أمير المؤمنين عليه السلام يُسبَّ في بلاد الشام على المنابر وفي الصلوات الخمس، وكان معاوية في قنوت الصلاة أو الدعاء بعد الصلاة يدعو على أمير المؤمنين عليه السلام، فاشتراط الإمام الحسن عليه السلام ترك ذلك كَلَّه، إلَّا أنَّه لاحقًا لم يلتزم بذلك أبدًا.

الشرط الثالث: أن يُفضَّل معاوية بني هاشم في العطاء، وأن يُفرَّق في أولاد من قُتل مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل وصفين ألف ألف درهم - أي مليون درهمًا - في كلِّ عام. وهذا في الواقع من الشروط الجميلة للإمام الحسن عليه السلام، إذ لم ينسَ التوصية بعوائل الشهداء.

إذًا، الشروط التي وضعها الإمام عليه السلام على أنواع، أولها له علاقة بمنهج الحكم ومستقبل السلطة السياسية، وثانيها له علاقة بالأمن والأمان لكلِّ الناس وخصوصًا لمن معه ولمن اتَّبعه، وثالثها له علاقة بالأُمور الشكلية والعناية بعوائل الشهداء.

قطف ثمار التسوية سريعاً

لم يناقش معاوية الشروط التي وضعها الإمام الحسن عليه السلام، لأنه من أوّل الأمر كان مصمّماً على عدم الالتزام بشيءٍ منها. ومع ذلك فقد جرى الاتفاق على الصلح أمام شهودٍ مذكورة أسماؤهم في كتب التاريخ. ومع الإعلان عن الصلح وانتهاء الحرب، زحف معاوية بجيشه نحو الكوفة ودخلها، فاجتمع الناس في مسجد الكوفة، حتّى دخل عليهم معاوية ووقف وألقى خطبةً أمامهم. ومنذ أوّل لحظةٍ من لحظات الإعلان عن الصلح والتسوية، بدأت الثمار تُقطف، وأهمّها عدم وقوع سفكٍ للدماء، وعدم قيام معركة لا جدوى منها، وبقاء شيعة الإمام عليه السلام وأصحابه وأهل بيته في أمن وسلام، ولكنّ الأهمّ من ذلك كلّهُ هو فضيحة معاوية الذي قدّم نفسه ككاتبٍ للوحي ونسيبٍ للنبي وخليفةٍ للمسلمين. فعلى الرغم من كلّ ما يُقال عن ذكائه ودهائه، إلّا أنّه وبسبب عنجهيته وشيطنته فضح نفسه في أوّل موقفٍ له بعد الصلح في مسجد الكوفة، حيث وقف أمام الناس وخاطبهم قائلاً: «أَتَرُونِي قَاتِلْتُكُمْ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تَصَلُّونَ وَتَزْكُونَ وَتَحُجُّونَ! لَكِنِّي قَاتِلْتُكُمْ لِأَتَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ وَإِلِي رِقَابِكُمْ. أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَرِّ وَشَيْءٍ أُعْطِيتُ الْحَسَنَ بْنِ عَلِيٍّ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ»⁽¹⁾.

(1) المفيد، محمّد بن محمّد بن النعمان، الإرشاد، ج 2، ص 14.

فمن أول لحظة بدأت هذه التسوية تؤتي ثمارها وتُحقق أهداف الإمام عليه السلام منها، فإن من جملة الأهداف التي أشرنا إليها هو إعطاء فرصة للأمة كي تكتشف الحقيقة بنفسها بعد كل ما عاشته من الشائعات والأكاذيب والأضاليل. وبعبارة أخرى، فليحكم معاوية، ولير الناس من هو معاوية. وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام ينبّه الناس في بعض خطبه ويخبرهم بأنّه إذا حكم معاوية فسيحصل كذا وكذا، وهذا يُذكر عادةً على أنّه من الأنباء المستقبلية التي تنبأ بها أمير المؤمنين عليه السلام، ولكنّه ليس كذلك، بل هو نقلٌ منه عن رسول الله ﷺ، فهو باب مدينة علم رسول الله ﷺ، وهو الذي كان يقول: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ فَأَنْفَتَحَ لِي مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ»⁽¹⁾. إذن، كانت خطة الإمام الحسن عليه السلام أن ترى الأمة من هو معاوية، وما حكمه وسلطانه والوعود التي وعدهم بها، كي تنكشف حقيقته وينكشف مشروعه، الأمر الذي سيساعد على تحضير الأرضية للإطاحة بهذا المشروع، وقد بدأ ذلك من أول يوم وقف فيه معاوية وخطب في الناس.

وبهذا تكون هذه المرحلة قد انتهت، فعاد الإمام الحسن والإمام الحسين والسيدة زينب عليها السلام - التي كانت معهما في الكوفة برفقة زوجها عبد الله بن جعفر - وأهل بيتهم إلى مدينة جدّهم رسول الله ﷺ، وعاش الإمام الحسن عليه السلام بعد هذه التسوية أقل من

(1) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، ج 1، ص 130.

عشر سنوات، إذ إنَّ كلَّ مدَّة إمامته بلغت عشر سنوات، ستَّة أشهرٍ منها كانت مدَّة خلافته في الكوفة، وتسع سنين وستَّة أشهر أمضاهـا في المدينة المنورة حتَّى شهادته.

دور الإمام الحسن عليه السلام بعد التسوية وجهاده وشجاعته

بعد عودته إلى المدينة المنورة، لم يتخلَّ الإمام الحسن عليه السلام عن مسؤوليَّاته، بل أخذ على عاتقه مهمَّة تبليغ الإسلام وتبيينه وتوضيحه ونشر العلوم والأحكام الشرعيَّة والمعارف الإسلاميَّة بكلِّ الوسائل المتاحة، وهذه المسؤولية كما نعلم هي أوَّل مسؤوليَّات الإمامة. هذا بالإضافة إلى الحفاظ على أنصاره وأصحابه في مختلف البلدان الإسلاميَّة، وذلك من خلال التدابير والإجراءات والاحترازاـت، بل ومن خلال الضغط على معاوية ومطالبته أحيانًا. كما أنَّه لم يغفل عن العناية بالفئات المستضعفة والفقيرة والمسكينة في المجتمع الإسلامي، بل تحمَّل المسؤولية تجاهها بكرمه الذي لم يكن له حدٌّ، حتَّى عُرف بكريم أهل البيت عليهم السلام.

ومن أهمِّ الأدوار التي قام بها الإمام عليه السلام هو بثُّ الوعي والبصيرة، فقد كان عليه السلام يبيِّن للناس مخالفاـت معاوية للإسلام وتخلُّفه عن الوفاء بالشروط، والمظالم التي كان يرتكبها بحقَّ الإسلام والمسلمين. وعلى مدى ما يقرب العشر سنين، ورغم كلِّ الظروف الصعبة التي كان يعيشها الإمام عليه السلام، كان يُرسل أصحابه إلى

مختلف البلاد والأمصار على امتداد العالم الإسلامي كي ينقلوا صوته ومواقفه ورسالته. هذا بالإضافة إلى المناظرات التي كانت تُعقد في المدينة، بل وأحياناً في الشام وفي بلاط معاوية وبحضور كبار القادة الأمويين، وهذا كله ثابت في كتب التاريخ. ومن يُطالع هذه المناظرات يكتشف كم كان الإمام الحسن عليه السلام على درجة عالية من الشجاعة والصلابة في وجه المشروع الأموي، فإنّ لحن الخطاب الذي كان يتحدث به الإمام عليه السلام في تلك المجالس مع معاوية وغيره من رجال النظام الأموي كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، والذين كانوا يحاولون استفزاز الإمام عليه السلام، هو لحن رجل شجاع لا يخشى أحداً. كما وكان عليه السلام يستفيد من محاولاتهم هذه ويستغل الفرصة لإسماع الحاضرين في المجالس العامة الكثير من الحقائق المرتبطة بالدعوة النبوية ومجريات الأحداث في زمن رسول الله ﷺ وما حدث بعده للأمة الإسلامية.

وكان الإمام الحسن عليه السلام في تلك المرحلة يعتمد استراتيجية الصبر والتحمل والتحصير والتعبئة وتهيئة الظروف بانتظار اللحظة الحاسمة، وكانت رؤيته ثاقبة ويعلم لمن يحضر وماذا يحضر. ولما استشهد الإمام الحسن عليه السلام وصارت الإمامة للإمام الحسين عليه السلام وبات هو القائد الفعلي، بقي لما يقارب العشر سنين من إمامته، وهي الفترة التي سبقت وفاة معاوية، مكملًا نهج أخيه الحسن عليه السلام، ما يدلّ على وحدة الرؤية بينهما وعلى اعتقاد الحسين عليه السلام بالمنهج نفسه الذي انتهجه الحسن عليه السلام،

بل كانت تأتيه الوفود من الكوفة واليمن وخراسان وبعض نواحي الحجاز ومختلف البلاد الإسلامية، وتطالبه بالخروج في وجه معاوية، وتعبّر عن جاهزيّتها واستعدادها لنصرته، ظلّاً منها أنّ الموافقة على الصلح كان قرار الإمام الحسن عليه السلام من دون الإمام الحسين عليه السلام، وبما أنّ الحسن عليه السلام قد استشهد وبات الحسين عليه السلام هو القائد فإنّ الموقف سيتغيّر، إلّا أنّ الإمام عليه السلام كان يجيبهم بأنّه ما دام معاوية على قيد الحياة فلا قيام مسلّح، وكان يأمرهم بإكمال العمل على سائر الأمور كالتبيين والتوضيح والتعبئة والتربية وممارسة المعارضة السياسيّة والإعلاميّة، وهكذا أكمل الإمام الحسين عليه السلام مسيرة أخيه الحسن عليه السلام، مبيّناً للوقائع وشارحاً للحقائق وفاضحاً لمعاوية ونظامه وولاته من دون أن يشهر سيفاً، على الرغم من أنّ معاوية نقض شروط الصلح من اليوم الأوّل، واستمرّ بنقضها إلى آخر عمره، حتّى كان آخر ما قام به قبل وفاته هو أخذ البيعة من الناس بالمال والسيف والترهيب والترغيب لابنه يزيد ليجعله حاكماً على المسلمين، وهذه مخالفة صريحة لشروط الصلح والهدنة والتسوية التي عقدها.

إلّا أنّ الأمر اختلف تماماً بعد وفاة معاوية وتسلّم يزيد حكم البلاد الإسلاميّة، وبرزت ظروف جديدة لم تكن على عهد معاوية، وهي التي نبّتها دائماً عند الحديث عن ظروف النهضة الحسينيّة، فقد علّم الإمام الحسين عليه السلام حينها أنّ وقت المواجهة قد حان، ولو كانت هذه المواجهة مسلّحة، بل حتى لو انتهت بشهادته

وسبي نسائه. فالذي حفظ الإسلام سنة 41 هـ هو صلح الإمام الحسن عليه السلام، والذي حفظ الإسلام سنة 61 هـ هو كربلاء الحسين عليه السلام، فتارةً تتحقق أهداف الإسلام بالتسوية، وتارة أخرى تتحقق بانتصار الشهادة وانتصار الدم على السيف.

مظلومية الإمام الحسن عليه السلام

لقد أدّى الإمام الحسن عليه السلام دورًا عظيمًا من أجل الحفاظ على الإسلام، ولكنّ ثمن هذا الأمر كان باهظًا وتضحياته كانت خطيرةً وعظيمةً، وهي تضحيات على المستوى النفسي والمعنوي لا يتحمّلها إلا إمام بمستوى الإمام الحسن عليه السلام. فمنذ اللحظة الأولى للتسوية وحتى حين شهادته، كان يأتيه البعض من خيرة أصحابه وأنصاره ويقولون له: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُدِلَّ الْمُؤْمِنِينَ»⁽¹⁾، هذه الكلمة التي لا يرضيها الواحد منّا لرفيقه، فكيف إذا قيلت لإمامه وقائده المعصوم؟! فلطالما قيلت هذه الكلمة للإمام الحسن عليه السلام، سواء في الكوفة أو في الطريق إلى المدينة أو في المدينة، ولكنّه عليه السلام كان يتحمّل كلّ ذلك، وكان إذا سمع هذه الكلمة من شخصٍ ما، بيتسم في وجهه ويدعوه للجلوس معه ويبيّن له الحقيقة بكلّ لطف ويسامحه. تحمّل الإمام الحسن عليه السلام هذا الأذى الشديد من أصحابه، وتبعه الأذى الأشدّ من بني أميّة ومن بني العباس

(1) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج 44، ص 24.

بعدهم. فما أكثر الروايات والادّعاءات الكاذبة التي حاكتها أيدي بني أمية لتشويه صورة الإمام الحسن عليه السلام مستفيدين من مسألة الصلح. ثمّ تبعهم على ذلك بنو العباس، وخاصةً أبو جعفر المنصور، الخليفة العبّاسي المعروف وثاني خلفاء بني العباس، والذي شنّ حرباً شعواء على الإمام الحسن عليه السلام، والسبب في ذلك - على ما يذكر بعض علمائنا المحققين - هو أنّ غالبية الثوّار الذين ثاروا في وجه أبي جعفر المنصور كانوا من الحسينيّين، أي من أولاد الإمام الحسن عليه السلام، ولذا أراد الانتقام من جدّهم الحسن عليه السلام.

وضع بنو أمية وبنو العباس شخصيّة الإمام الحسن عليه السلام هدفاً لهم وعمدوا إلى تشويهها، فبدأوا يحيكون القصة الكاذبة حول الإمام عليه السلام، ويروجون بين المسلمين أنّه كان رجلاً يحبّ الدعة والسلام والعافية، ولم يكن رجل حرب وقاتل وجهاد وتضحية وبذل دماء، فاتّهموه بشجاعته وصوّروه كرجل جبان، بل ووصفوه بأوصاف وعبارات نخجل من ذكرها! ثمّ اتّهموه بأنّه لم يكن يهتمّ من الدنيا سوى اللباس الفاخر والطعام الشهي والنساء، ووضعوا روايات كاذبة بل واخترعوا خطباً على لسان أمير المؤمنين عليه السلام لم ينطق بها أبداً، فنسبوا إليه أنّه كان ينهى الناس عن تزويج بناتهم لابنه الحسن لأنّه كثير الزواج والطلاق! بل وبالغوا في تزوير التاريخ أيضاً، إلى درجة أن قال بعضهم أنّه كان للإمام الحسن عليه السلام 400 زوجة، ومنهم من جعلهنّ 700 زوجة، بل وأوصل البعض عددهنّ 900 زوجة، وكلّ ذلك غير منطقي ولا واقعي، بل هو

ظلم للإمام عليه السلام وطعن بمنزلته ومقامه بسبب الموقف الإلهي والتكليف الشرعي والموقف الشجاع والحكيم الذي اتّخذه وتحمل مسؤوليته كي يحفظ الإسلام والأمة الإسلامية. وقد استمرت هذه المظلومية لقرون طويلة، ولذلك احتاج علماؤنا في كلّ جيلٍ إلى تأليف كتبٍ يشرحون فيها موقف الإمام الحسن عليه السلام وخلفياته والظروف والدواعي التي دفعته لاتّخاذ هذا القرار.

هذه نبذة مختصرة عن مظلومية الإمام الحسن عليه السلام التي بدأت في حياته واستمرت بعد شهادته. بل حتّى شهادته عليه السلام كانت تجلياً لتلك المظلومية، حيث قُتل مسمومًا على يد زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس، ذلك الجاسوس الأموي وعين أبي سفيان ومعاوية في جيش أمير المؤمنين والحسن عليه السلام. وقصة خيانة جعدة للإمام الحسن عليه السلام وقتله بالسّم معروفة، إذ وعدّها معاوية بمبلغ كبيرٍ من المال وبتزويجها من يزيد الذي سيصير ملكًا للمسلمين في مقابل قتلها للحسن عليه السلام، فطمعت وقتلته، فأعطاهّا معاوية المال ورفض أن يزوّجها ليزيد، وقال لها: مَنْ يقتل الحسن يقتل يزيد، فخسرت الدنيا والآخرة، وهذه عبرة من عبر التاريخ.

استشهد الإمام الحسن عليه السلام مظلومًا، فوقف الحسين عليه السلام يرثي أخاه الشهيد عند قبره قائلاً: «رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّ كُنْتُ لَتُبَاصِرُ الْحَقَّ مَظَانَّهُ، وَتُؤَثِّرُ اللَّهُ عِنْدَ التَّدَاخُصِ [والتداحض

هو الانزلاق] في مَوَاطِنِ التَّقِيَّةِ بِحُسْنِ الرِّوَايَةِ [وهذه إشارة إلى حكمته عليه السلام ورويته في أعقد الظروف]، وَتَسْتَشْفُ جَلِيلَ مَعَاضِمِ الدُّنْيَا بِعَيْنٍ لَهَا حَاقِرَةٌ [وهذه إشارة إلى استحقاقه عليه السلام للدنيا]، وَتَفِيضُ عَلَيْهَا يَدًا طَاهِرَةً الْأَطْرَافِ نَقِيَّةَ الْأَسْرَةِ [وهذه إشارة إلى كرمه عليه السلام الذي كان معروفاً به]، وَتَرْدَعُ بَادِرَةَ غَرْبِ أَعْدَائِكَ بِأَيْسَرِ الْمُؤُونَةِ عَلَيْكَ [فما فعله عليه السلام بالتسوية كان ردعاً لمؤامرة كبرى وخطيرة جداً، فدفعها بأيسر المؤونة]، لَا غَرَوَ [أي لا عجب] فَأَنْتَ ابْنُ سَلَالَةِ النُّبُوَّةِ وَرَضِيَ لَبَانِ الْحِكْمَةِ، فَإِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَجَنَّةٍ وَنَعِيمٍ، أَعْظَمَ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ الْأَجْرَ عَلَيْهِ، وَوَهَبَ لَنَا وَلَكُمْ حُسْنَ الْأَسَى عَنْهُ».

مسؤوليتنا تجاه الإمام الحسن عليه السلام

في الختام نجد من المناسب أن نلفت النظر إلى خطأ نمارسة في بعض أدبياتنا، وهو خطأ ناشئ من غفلتنا. فنحن في كثيرٍ من الأحيان نُعرِّف عن أنفسنا بأننا أتباع علي والحسين عليهما السلام، أو نعبر عن أنفسنا بأننا نسير على خطِّ علي والحسين عليهما السلام، أو نصف أنفسنا بأننا شيعة علي والحسين عليهما السلام، وهذا رائعٌ في أدبياتنا وفي منابرنا إلى حدٍّ ما، ولكنه كلام غير تامٍّ، لأنَّ فيه جفاءً لحقِّ الإمام الحسن عليه السلام وغفلةً عن انتمائنا إليه. لذا يجب أن نقول: إننا أتباع علي والحسن والحسين عليهم السلام، ونسير على خطِّ علي والحسن

والحسين عليه السلام، وشيعة علي والحسن والحسين عليهم السلام، لأننا ننتمي إلى الحسن كما ننتمي للحسين عليه السلام، ونسير على درب الحسن كما نسير على درب الحسين، ومن الخطأ أن نغفل عن ذلك ونوجد طفرةً وقفرةً بين علي والحسين عليهما السلام.

بل وهكذا كان أصحاب الحسين عليه السلام أيضاً، ولذلك فإننا في زيارة شهداء كربلاء وأصحاب الحسين عليهم السلام، نقول لهم: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ فَاطِمَةَ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، الْوَلِيِّ النَّاصِحِ، السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَسَنِ».

نعم، إذا قيل إنَّ العراق هي أرض علي والحسين عليهما السلام، فهذا صحيح لأن أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام مدفونان في العراق، فيصح أن نصف العراق بأرض علي والحسين عليهما السلام، ولكن عند الكلام عن الطريق والخط والنهج والحب والاتباع، يجب أن نقول: نحن شيعة علي والحسن والحسين عليهم السلام.

والحمد لله رب العالمين.

والحسين عليه السلام، وشيعة علي والحسن والحسين عليهم السلام، لأننا ننتمي إلى الحسن كما ننتمي للحسين عليه السلام، ونسير على درب الحسن كما نسير على درب الحسين، ومن الخطأ أن نغفل عن ذلك ونوجد طفرةً وقفرةً بين علي والحسين عليهما السلام.

بل وهكذا كان أصحاب الحسين عليه السلام أيضاً، ولذلك فإننا في زيارة شهداء كربلاء وأصحاب الحسين عليهم السلام، نقول لهم: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ فَاطِمَةَ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، الْوَلِيِّ النَّاصِحِ، السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَسَنِ».

نعم، إذا قيل إنَّ العراق هي أرض علي والحسين عليهما السلام، فهذا صحيح لأن أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام مدفونان في العراق، فيصحُّ أن نصف العراق بأرض علي والحسين عليهما السلام، ولكن عند الكلام عن الطريق والخط والنهج والحب والاتباع، يجب أن نقول: نحن شيعة علي والحسن والحسين عليهم السلام.

والحمد لله رب العالمين.



دار المودة
للترجمة والتحقيق والنشر

حَافِظُ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ

لا يمكن أن نتحدث عن واقعة كربلاء والإمام الحسين عليه السلام من دون الحديث عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ودوره العظيم في حفظ الإسلام والأمة الإسلامية، وهو الهدف نفسه الذي قام من أجله الإمام الحسين عليه السلام وحدثت من أجله واقعة كربلاء.



دار المودة
للترجمة والتحقيق والنشر